

معهود القرآن في أساليبه

دراسة تفسيرية تطبيقية

إعداد الدكتور

عبد المحسن جمعة عبد الحميد

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالقاهرة

جامعة الأزهر - مصر

معهود القرآن في أساليبه دراسة تفسيرية تطبيقية

عبد المحسن جمعة عبد الحميد

قسم التفسير وعلوم القرآن ، أصول الدين ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

البريد الإلكتروني : AbdulMohsenadjacent.2011@azhar.edu.eg

الملخص:

معهود القرآن هو ماعُهد منه ، بحيث تكرر وأصبح عادة مُطَرِّدة ، أو أمراً أغلبياً ، له مدخل في إبراز إعجاز القرآن ، وله تأثير في ترجيح معنى على آخر ، لذا فقد تناولت هذا الموضوع بالبحث والدراسة وجعلت عنوانه : (معهود القرآن الكريم في أساليبه . دراسة تفسيرية تطبيقية) ، وكان الهدف من هذا البحث التعريف بمعهود القرآن ، والهدف من دراسته ، وجهود العلماء فيه ، وجريانه في الأساليب ، وأثره في ترجيح معنى على آخر ، وفائدة الاهتمام بهذا الموضوع ، وإذا تخلف المعهود في أمر فهل يكون لفائدة ؟ وكانت النتائج التي توصل إليها الباحث أن للقرآن الكريم معهوداً في موضوعات كثيرة ، منها معهوده في أساليبه ، وأن معهوده في أمر ما إما كليّ أو أغلبي ، وأن معهود القرآن يكون في المفردات ويكون في التراكيب . وأن لبعض معهود القرآن مدخلاً في ترجيح معنى على معنى . وأنه إذا تخلف المعهود القرآني في موضوع ما فإن ذلك يكون لغرض . وأن هناك فوائد جمّة للاهتمام بمعهود القرآن .

الكلمات المفتاحية : معهود ، القرآن ، أساليب ، تفسير ، تطبيق .

Holy Qur'an Anticipated in his Styles

An Applied Exegetical Study.

Abdul Mohsen Gomaa Abdul Hamid

Interpretation and Qur'an Sciences Department, Faculty of
Usul-Uddin, Al Azhar university, Cairo, Egypt

Mail: AbdulMohsenadjacent.2011@azhar.edu.eg

Abstract:

The anticipated (ma'hūd) in the Quran is what is accustomed from it, often repeated and established as a prevailing practice or a predominantly observed matter. This research delves into highlighting the miraculous nature of the Quran through an interpretive and applied study titled: "The Anticipated in the Noble Quran in Its Styles: An Applied Exegetical Study." The objective of this research is to define the concept of the anticipated in the Quran, elucidate its purpose, explore scholars' contributions, examine its flow in styles, assess its impact on favoring one meaning over another, underscore the significance of addressing this subject, and contemplate the potential benefits if the anticipated deviates in a certain matter. The findings reveal that the Quran encompasses anticipation in numerous aspects, including its styles, and that anticipation in a given matter is either comprehensive or predominant. The Quran's anticipation can be observed in its vocabulary and structures. Some Quranic anticipations contribute to favoring one meaning over another. If a Quranic anticipation appears to deviate in a particular subject, it serves a purpose. There are manifold benefits in paying attention to the anticipated in the Quran.

Keywords: Anticipated, Holy Qur'an, Styles, Exegetical, Applied.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى لعباده المؤمنين ، والصلاة والسلام على من كانت أهم وظائفه بيان هذا الكتاب العظيم ، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين ، خير من تعلموا القرآن ، وعملوا به ، وبلغوه ، وبعد ... فلما كان القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية نزولاً ، كان حريّاً أن يكون جامعاً لكل صفات الكمال في جنسه ، فلا جرم قد كان ، قال تعالى ﴿الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة ١، ٢] ، ولما كان كذلك فقد تفرد بما ليس في غيره من الكتب من صفات الكمال هذه ، نظماً وأسلوباً ، هداية وإعجازاً ، وصلاحية لضبط حياة الناس في كل زمان ومكان ، وكان مما تفرد به أن له معهوداً وعادات في المفردات والأساليب، لا تخطئها فطنة القارئ المتدبر، ولا عين العالم المتبحر ، وهذا المعهود وتلك العادة تكون في المفردات وتكون في الأساليب، ويكون لها تأثير في المعنى ، وقد ركزت في هذا البحث على معهود القرآن في أساليبه وكان الهدف من البحث :

- أن يتعرف القارئ على جهود العلماء في العناية بمعهود القرآن .
 - " " " " معهود القرآن في أساليبه .
 - " " " " أثر معهود القرآن في ترجيح معنى على آخر .
- والله تعالى أسأل أن يرزقني الصدق فيما أقول، والإخلاص فيما أعمل ، ومنه أستمد العون والسداد .

مشكلة البحث :

- هل للنظم القرآني عادة في تناوله لبعض القضايا والمواضيع ؟
- هل عادات القرآن كلية أو أغلبية ؟
- هل لبعض معهود القرآن أثر في ترجيح معنى على آخر ؟

- هل يتخلف ذلك المعهود ؟ وهل إذا تخلف يكون ذلك لغرض ؟
- هل لمعهود القرآن وجود في المفردات أم في التراكيب أم في كليهما ؟
- هل ثمت فائدة للاهتمام بمعهود القرآن ؟

فرضية البحث:

- للقرآن الكريم معهود في موضوعات كثيرة.
 - معهود القرآن في أمر ما أغلبي وقد يأتي كلياً.
 - لبعض معهود القرآن مدخل في ترجيح معنى على معنى.
 - إذا تخلف المعهود القرآني في موضوع ما فإن ذلك يكون لغرض.
 - للقرآن الكريم عادات في المفردات والتراكيب.
 - هناك فوائد للاهتمام بمعهود القرآن .
- منهج البحث :** استخدمت المنهج الاستقرائي^(١) التطبيقي، فاستقرىء المعهود في موضع ما ثم أطبق ذلك على بعض الآيات في المسألة، دون توسع أو استطراد .
- الغرض من كتابة هذا البحث :**

يقول صاحب كشف الظنون : إن التأليف على: سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها.

وهي: إما شيء لم يسبق إليه، فيخترعه. أو: شيء ناقص يتممه. أو: شيء مغلق يشرحه. أو: شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه. أو: شيء متفرق يجمعه. أو: شيء مختلط يرتبه. أو: شيء أخطأ فيه مصنفه، فيصلحه. وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق إليه: أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد.

استنباط شيء كان معضلاً. أو: جمعه إن كان مفزاً. أو: شرحه إن كان غامضاً. أو حسن نظم وتأليف. وإسقاط حشو وتطويل. اهـ^(٢)

(١) أحياناً يكون الاستقراء للمعهود كاملاً وأحياناً يكون ناقصاً .

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٨/١).

وبما أن الباحث قد سبق في هذا الأمر فإن كتابته فيه تعد من باب إتمام ما لم يتم ، والاستدراك على بعض ما كُتب قبل . فكانت الكتابة في هذا البحث بإشارات موجزة إلى جزئياته دون التوسع والاستطراد .

الدراسات السابقة :

أخذ موضوع معهود القرآن جزءاً من اهتمام بعض المفسرين القدامى ، من هؤلاء المفسرين : الراغب الأصفهاني، والإمام فخر الدين الرازي ، وابن قيم الجوزية والإمام الزركشي ، والسيوطي ، وكذلك بعض من المفسرين المُحدثين ، منهم : الشيخ محمد رشيد رضا ، والعلامة الطاهر ابن عاشور . وأكثر هؤلاء اهتماماً به ابن القيم والزركشي والسيوطي وابن عاشور، رحمهم الله جميعاً.

وكان لغيرهم إشارات إلى هذا الموضوع في مواضع قليلة من تفاسيرهم . ثم إنني وجدت بحثاً كتب في هذا الموضوع تحت عنوان :
عرف القرآن الكريم والمعهود من معانيه واستعمالاته وأثره في الترجيح الدلالي .

أعده الباحث أحمد فالح الخالدي ^(١). وهو بحث مفيد في بابه، وجهد مشكور لصاحبه، غير أن ثَمَّ بعض ما فاتته مما يتعلق بهذا الموضوع أحببت أن أتممه . ولا أزعم أنني استقصيت في هذا البحث ما فات غيري من موضوع معهود القرآن؛ لضيق البحث ، وقصر النفس عن هذا الأمر من جهة ، ووجود تلك الدراسة المستوعبة ^(٢) القيمة في هذا الموضوع ، من جهة أخرى ، ولكنني عرضت نماذج وصل إليها جهدي القاصر ، يتضح بها المقال ، وتُجَلَّى معهود القرآن في أمور بعينها ، والحبلى في هذا الأمر على الجرار ^(٣)، فالقرآن لا تتقضي عجائبه، ولا تنفد علومه .

(١) بحث لنيل درجة الدكتوراه من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، بجامعة اليرموك – الأردن ٢٠٠٨م.

(٢) استوعب الشيء : أتى عليه كله . تهذيب اللغة (وعب) . وهذه الدراسة هي المشار إليها سابقاً للباحث أحمد الخالدي .

(٣) مثل يضرب لاستمرار الأمر أياً كان .

وكثيرا ما أضرب صفحا عن التوسع في ما يتعلق بالآيات من النواحي اللغوية والتفسيرية إلا ما تدعو الحاجة إليه مما يتعلق بموضوع البحث .

عناصر البحث :

يتكون البحث من مقدمة ، وتمهيد، ومبحثين وخاتمة .

المبحث الأول : معهود القرآن فيما يتعلق بالمولى سبحانه وتعالى والنبي محمد ﷺ . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : معهود القرآن فيما يتعلق بالمولى تبارك وتعالى؛ تحذير العباد بذكر صفات الجلال.

المطلب الثاني : معهود القرآن فيما يتعلق بالنبي ﷺ .

المبحث الثاني : معهود القرآن فيما يتعلق ببعض الموضوعات القرآنية وفيه عشرة مطالب :

المطلب الأول: معهود القرآن فيما يتعلق بالأمر ببر الوالدين .

المطلب الثاني: معهود القرآن فيما يتعلق باستخدام ما يرشح المعنى من ألفاظ.

المطلب الثالث : معهود القرآن فيما يتعلق بالإخبار عن المستقبل بالماضي

المطلب الرابع : معهود القرآن فيما يتعلق باستعمال الأفصح وتقديمه على الفصيح .

المطلب الخامس: معهود القرآن فيما يتعلق باستعمال أقرب الكلمات في اللغة دلالة على المعنى المقصود

المطلب السادس: معهود القرآن في تعقيب بعض الآيات التي فيها تكليف ومشقة بترجي التقوى وما فيها رخصة ويسر بترجي الشكر .

المطلب السابع: معهود القرآن فيما يتعلق باقتران التسخير بلفظ الجلالة أو ضميره دون غيره من الأسماء الحسنى .

المطلب الثامن : معهود القرآن فيما يتعلق بتعقيب الأحكام بذكر علها

المطلب التاسع : معهود القرآن في تقديم الشمس على القمر إذا اجتمعا .

المطلب العاشر : معهود القرآن في تقديم قصة عاد على ثمود حيثما اجتمعتا.

المطلب الحادي عشر : معهود القرآن فيما يتعلق بالآيات الكونية والإنسانية .

تمهيد

شرح مفردات العنوان

تدور مادة (عهد) حول : الوصية، والتقدم إلى المرء في الشيء، والموثق، واليمين، والحفاظ، ورعاية الحرمة، والأمان، والذمة، والالتقاء، والمعرفة، ومنه: عهدي بموضع كذا، والمنزل المعهود به الشيء، وأول مطر الوسمي^(١) . وعهد الشيء عهداً: عرفه، يقال: عهدي به كذا، في حال كذا^(٢)، و (المعهود) الذي عهد وعرف^(٣)

وفي تاج العروس : العهد: (الالتقاء، والمعرفة) ، وعهد الشيء عهداً، عرفه. ومن العهد أن تعهد الرجل على حال أو في مكان. (ومنه) ، أي من معنى المعرفة، كما هو الظاهر، أو مما ذكر من المعنيين قولهم (عهدي) به (بموضع كذا) ، وفي حال كذا، أي لقيته وأدركته وعهدي به قريب^(٤) .

قلت : ومن هذا يمكن القول إن المعهود هو المعروف الغالب في أي أمر؛ لغوي أو شرعي أو عرفي^(٥)

والإضافة في (معهود القرآن) بمعنى في أو من ، فيكون المعنى : المعهود في القرآن ، أو المعهود من القرآن في أمر ما .

والأسلوبية نسبة إلى الأسلوب وهو: الطريق، والوجه، والمذهب ، والأسلوب أيضا الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه^(٦).

(١) القاموس المحيط فصل العين باب الدال) ويقال لأول أمطار السنة: الوسمي ، لأنه يسم الأرض ويؤثر فيها . الزاهر في معاني كلمات الناس للأنباري ٤٧٨/١

(٢) المحكم والمحيط الأعظم ١٢٠/١ .

(٣) مختار الصحاح (عهد).

(٤) تاج العروس ٤٥٥/٨ .

(٥) الغالب، هو الأكثر دورانا في الكلام، لكنه قد يتخلف، بخلاف المطرد فإنه المقيس الذي لا يختل. تاج

العروس ٩٤/١ .

(٦) لسان العرب (سلب) .

والأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام ، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف لاختيار المفردات والتراكيب لكلامه^(١) .

ومن العرف القرآني ما يدخل في أساليب استعمال الألفاظ وأساليب عرض الموضوعات.^(٢)

وهذا البحث أكثر ما يتعرض لمعهود القرآن في أساليب عرض الموضوعات .

مصطلحات مرادفة لمعهود القرآن ذكرت عند المفسرين :

- عرف القرآن .
- عادة القرآن ، عادات القرآن .
- اصطلاح القرآن ، مصطلح القرآن .
- دأب القرآن^(٣) . والدأب بسكون الهمزة - وإن لم يرد في القرآن إلا في معرض ذكر العادة المذمومة، كقوله تعالى في أكثر من موضع ﴿ كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾^(٤) إلا أن طائفة من المفسرين أطلقوا هذا المصطلح في تفاسيرهم على ما هو من معهود القرآن ، كابن عاشور، والمراغي، والهرري ، والبقاعي، والبروسوي، والقنوجي، والمظهري . فلم أجد غضاضة في ذكره .
- طريقة القرآن .
- دين القرآن^(٥) .
- مبتكرات القرآن^(٦) وفيما يلي نماذج من معهود القرآن :

(١) مناهل العرفان للزرقاني ٢١٨/٢ .

(٢) عرف القرآن للخالدي ص ٧٤ .

(٣) الدأب: العادة والشأن ودأب الرجل في عمله، (إذا) جدّ وأدأبته أنا إداها، والدائبان: الليل والنهار. مجمل اللغة لابن فارس ٣٤٢/١ .

(٤) آل عمران (١١)، الأنفال (٥٢ ، ٥٤) .

(٥) هذا الأخير ذكره صاحب التفسير الواضح ٢ / ٢٣٠ ، ٢٣٧ . والدين العادة والدأب. يُقال فلان دينه أن يفعل كذا . المعجم الوسيط ٢٧٦/١ .

(٦) هذا المصطلح للعلامة الطاهر ابن عاشور ، وقد أورده مرارا في تفسيره التحرير والتنوير .

المبحث الأول

معهود القرآن فيما يتعلق بالمولى سبحانه وتعالى والنبى محمد ﷺ.

المطلب الأول

معهود القرآن فيما يتعلق بالمولى تبارك وتعالى

التحذير والتهديد بذكر صفات الجلال والكمال^(١)

ويكون ذلك عقب ذكر بعض من الأوامر والنواهي ، فيكون من المناسب التحذير من مخالفتها ، والتهديد بسوء العاقبة، وذلك عن طريق تعقيبها ببعض من صفات الجلال والكمال للمولى سبحانه وتعالى ؛ تربية للمهابة في النفوس ، وزجراً عن مقارفة شيء من المنهيات .

ومن صفات الجلال : القدرة. والإرادة، والسمع، والبصر، والوجود، والقُدَم، والاستغناء عن الغير ، والقوة ، والعزة ، والحكمة ، وغيرها .

وقد وردت هذه العادة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ؛ منها :

ما جاء في شأن الوصية للوالدين والأقربين - قبل أن تتسخ بآيات المواريث- في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة (١٨١).

أي : مَنْ غَيَّرَ - من الأوصياء أو الأولياء أو الشهود - وصية الميت بعد ما سمعها من الميت، وكانت في معروف ولم يُمضِ وصيته فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ

(١) صفات الله تعالى قسمان:

القسم الأول : صفات الجلال: وهي الصفات التي فيها نعت الرب بجلاله وعظمته وقهره وجبروته ، وهي التي تجلب في قلب الموحد الخوف منه سبحانه ، مثل صفة، القوة، القدرة، القهر، الجبروت وأشباه ذلك. ومعنى كونها صفات جلال أن من تأملها أجلَّ الله تعالى وهابه وخافه .

القسم الثاني صفات الجمال: وهي الصفات التي تبعث في قلب الموحد محبة الرب جل جلاله، والأنس به وبلقائه وبمناجاته وبالإنابة إليه، وهذه صفات كثيرة لله تعالى ، مثل صفة الرحمة والرفقة والمغفرة وقبول التوبة والسلامة؛(اسم الله السلام)، والمؤمن وأشباه ذلك. فصفات العظمة تلك يقال لها صفات جلال، ونعوت الرحمة والمحبة يقال لها صفات جمال. بمعناه من مفاتيح الغيب ٤١٤/١٨

يُبَدِّلُونَهُ ، أي على الأوصياء والأولياء والشهود لا على الميت ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما أوصى به الموصي عليمٌ بما تخفيه صدورهم من الميل إلى الحق، والعدل، أم الجور والحيثف ، أو عليم بتبديل المبدلين .

فختم الآية بهاتين الصفتين من صفات الجلال إشعار بالوعيد الشديد لمن يبدل الحق عن وجهه ، والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه حيل الناس الباطلة، فيجازيهم عليها .

- وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة (٢٠٩).

أي فإن أخطأتم طريق الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد ما جاءتكم الحجج والبيّنات ، وظهر لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة القاطعة لأعدائكم ؛ فاعلموا أن الله ذو عزة، لا يمنعه من الانتقام منكم مانع، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره وعصيانكم إياه دافع ، "حكيم" في عقوبته إياكم على معصيتكم إياه. (١)

- وكقوله تعالى: ﴿ سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ البقرة (٢١١).

أي سل - يا رسول الله - يهود؛ كم أتى الله أسلافهم آيات بينات: عصى موسى، ويده، وفلق لهم البحر، وأغرق فرعون وجنده وهم ينظرون، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن السلوى. أو كم آتاهم الله من آية وعلامة، على ما فرض عليهم من فرائضه ، فأمرهم به من طاعته، وتابع عليهم من حججه على أيدي أنبيائه ورسله من قبلك، مؤيدة لهم على صدقهم، بيّنة أنها من عنده ، واضحة أنها من أدلته على صدق رُسله فيما افترض عليهم من تصديقهم وتصديقك، فكفروا حُجَّجه، وكذبوا رسله، وغيرُوا نعمه، وبدّلُوا عهده ووصيته إليهم. (٢)

(١) بتصرف من تفسير الطبري ٢٥٩/٤ .

(٢) الطبري ٢٧١/٤ .

وفي هذا السؤال وصيغته حذف دل عليه قوله: ومن يبذل نعمة الله تقديره فبدلوها ولم يعملوا بها.^(١)

والمقصود من تذييل الآية بقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهديد المبدل، فدل على معنى: فأنه يعاقبه، لأن الله شديد العقاب، ومعنى شدة عقابه: أنه لا يفلت الجاني وذلك لأنه القادر على العقاب، وفي إظهار اسم الجلالة هنا مع أن الظاهر أن يقال: فإنه شديد العقاب، إدخالاً للروح في ضمير السامع، وتربية للمهابة في نفسه.^(٢)

ووجدت من تذييل الآية بصفات الجلال ما يأتي :

- عقب التحذير من الكفر كما في قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آل عمران (١٩)، أي : ومن يجحد حجج الله وأعلامه التي نصبها ذكرى لمن عقل، وأدلة لمن اعتبر وتذكر، فإن الله محص عليه أعماله وأقواله التي كان يعملها في الدنيا، فمجازيه بها في الآخرة، فإنه جل ثناؤه سريع الإحصاء. أي حافظ على كل عامل عمله، بغير كلفة ولا مؤونة، ولا معاناة لما يعانيه غيره من الحساب.^(٣)

- وكذلك ما يأتي عقب التحذير من ترك الفريضة مع القدرة عليها وعدم العذر كما في آية الحج في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران (٩٧). أي أن الله تعالى أوجب الحج على من استطاع السبيل إلى البيت الحرام أن يحجه وبين الرسول ﷺ الاستطاعة والسبيل بالزاد والراحلة ، على خلاف بين المذاهب في تفصيل الاستطاعة والسبيل ^(٤)، ثم غلظ ترك الحج بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ ^(٥) مكان، ومن لم

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٩١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطبري ١٩/٥٢ .

(٤) وعلى الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة في الاستطاعة ؛ أهى قبل الفعل أم معه .

(٥) الكفر هنا بمعنى الجحد ، وليس بمعنى الترك .

يحج، ثم ذكر استغناؤه سبحانه عن خلقه، وهو دلالة على المقت والسخط والخذلان، وقوله : ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ دون أن يقول (عنه) لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنيا عن الإنسان الواحد وعن طاعته^(١).

- ومنها ما يأتي عقب الأمر بالتقوى والتحذير من قطع الأرحام ، وتعليل ذلك باطلاع الله تعالى على الخلق ، لا يغيب عنه من أمرهم شيء ، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء (١).

فقد افتتحت الآية بالأوامر المذكورة ثم ختمت بما هو كالوعد والوعيد والترغيب والترهيب وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ والرقيب هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك وأقوالك. ومن هذا صفته فإنه يجب أن يُخاف ويُرجى، فبين تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه إذا كان كذلك فيجب أن يكون المرء منه على خوف وحذر فيما يأتي ويذر. ^(٢)

والجملة في موضع التعليل للأمر ووجوب الامتثال^(٣).

وكقوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ النساء (٥٨).

- أو أن يأتي ذكر صفات الجلال والكمال عقيب ذكر فعل من أفعال القلوب ، إشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بما تُكنه السرائر ، وعلم أحوال أصحابها من إخلاص أو عدمه فيما يأتون أو يذرون . كقوله تعالى :

(١) مفاتيح الغيب ٣٠٦/٨ . يتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤٨٢/٩ .

(٣) روح المعاني ٣٩٦/٢ .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ النساء (١٣٤) .

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) أي أن الله سبحانه وتعالى عالم علما دائما أزليا ، علم من يسمع ما يُجهر به ويُسر، ومن يطلع على حركات النفوس، وخلجات القلوب، وما يجيش في الصدور، وعالم علم من يبصر أدق الأعمال وأخفاها من خير أو شر، وإنه مجازي كل إنسان على مقتضى هذا العلم الذي لا تخفى عليه خافية.(١)

- أو أن يُعَقَّبَ الجُرم بما يدل على عزة المشرِّع وحكمته في تشريعه ، كقوله تعالى في شأن السرقة:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ المائدة (٣٨) .

والله عزيز: في انتقامه من السارق، فلا يبالي- مع عزته الموجبة لامتنال أمره- عزة من دونه (٢)..حكيم: فيما أوجبه من قطع يد السارق (٣)، أو فيما يضع من عقوبات للجرائم (٤)

- وقوله عز قائلًا على سبيل الوعد لأوليائه بالنصر ، والوعيد لأعدائه بالخذلان والانتقام منهم :

﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ إبراهيم (٤٧ ، ٤٨) .

قال الإمام الرازي : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ بَيْنَ وَقْتِ انتِقَامِهِ فَقَالَ: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَعَظَّمَ مِنْ حَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّهُ لَا أَمْرَ أَعْظَمَ فِي الْعُقُولِ وَالنَّفُوسِ مِنْ تَغْيِيرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (٥).

(١) زهرة التفاسير ١٨٩٣/٤ .

(٢) محاسن التأويل ١٣٠/٤ .

(٣) الوسيط للواحد ١٨٥/٢ .

(٤) تفسير الشعراوي ٣١١٤/٥ .

(٥) مفاتيح الغيب ١١١/١٩ .

- وقوله تعالى محذرا من مخالفة الرسول ﷺ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر (٧).

فبعد أن بين الله تعالى أن حق الرسول ﷺ على المؤمنين: الامتثال والطاعة من غير مراجعة، ولا توقف، أو ريبة..أردفه بالوعيد لمن تحدثه نفسه من المؤمنين بالخروج عن أمر الرسول ﷺ ، أو الضيق به^(١).

ففيما سبق من الآيات كان التعقيب بذكر صفات من صفات الجلال والكمال زجرا عن المخالفة وتربية للمهابة في النفوس .

(١) التفسير القرآني للقرآن ٨٥٩/١٤ بتصرف.

المطلب الثاني

معهود القرآن فيما يتعلق بالنبي ﷺ

وأناقش تحت هذا العنوان :

معهود القرآن فيما يتعلق بالسؤال الموجه للنبي ﷺ وجوابه

وردت كلمة (سأل) في القرآن الكريم باشتقاقات متعددة ، فقد جاءت بصيغة الماضي والمضارع، مبنيا للفاعل، ولما لم يسم فاعله، والأمر، وجاءت بصيغة اسم الفاعل واسم المفعول وبصيغة التفاعل في المضارع .

وقد جاء الفعل المضارع منها متصلا بكاف الخطاب ، والمخاطب هو الرسول ﷺ ، والمعهود في هذا أنه إذا ذكر السؤال في الكلام وكان الجواب بـ ﴿قل﴾ فإنه لا يقترن بالفاء، وقد ورد ذلك في أكثر من اثني عشر موضعا في القرآن الكريم^(١). وقد تخلفت هذه العادة في موضع واحد في سورة طه في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٥) فقد اقترن الجواب بالفاء. فإنه لما قصت الآيات بعض أحوال السابقين ثم أخبرت عن بعض ما يأتي من أحوال المعرضين عن الذكر - الذي هو القرآن - أخبرت عن بعض أحوالهم في

(١) وهي قوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَالِكَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) [البقرة ١٨٩] . وقوله (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ) [البقرة ٢١٥] .

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) [البقرة ٢١٧] .
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) [البقرة ٢١٩] .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) [البقرة ٢٢٠]
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَى) [البقرة ٢٢٢] .
(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ) [المائدة ٤] .
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنْمَا عَلِمُهَا عَبْدُ رَبِّي لَا يُجْلِيهَا لَوْ قَرَّبَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) [الأعراف ١٨٧] .
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) [الأنفال ١] .
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) [الإسراء ٨٥] .
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَلُوا عَنْكَ مِنْهُ ذِكْرًا) [الكهف ٨٣] .
(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنْمَا عَلِمُهَا عَبْدُ اللَّهِ وَمَا يُذْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) [الأحزاب ٦٣] .

الإعراض ، وهو سؤالهم عن الجبال ؛ - على سبيل الاستهزاء والتكذيب بأمر البعث^(١) ما يكون حالها يوم ينفخ في الصور؟ متوهمين عدم تأثرها بأحوال القيامة لأنها أشد الأشياء قوة، وأطولها لبثاً، وأبعدها مكثاً، فجاء الجواب على نحو ما ذكر .

والمعنى : أن المشاركين سيسألونك - سؤال استهزاء ، واستبعاد للبعث والحشر - عن الجبال الرواسي؛ ما حالها في القيامة ؟ فإذا سألوك فقل لهم إن من شأنها كَيْتَ وَكَيْتَ .

وقد اقترن الجواب بالفاء لأن السؤال جاء بصيغة الاستقبال ، وهو إخبار عن أمر علم الله وقوعه ، فأخبر عنه، فأتى بفاء الفصيحة في الجواب أي : إذا سألوك فقل لهم ... فالكلام على تقدير شرط . وقد علم الله تعالى أنهم سيسألونه ، فالسؤال لما يُسأل بعد ، وهذا بخلاف ما نزل بعد وقوع السؤال عنه بالفعل ؛ مثل الروح وقصة ذي القرنين ، وغيرهما ؛ فإن الأمر بجوابه على طريق الاستئناف، لما هناك من استشراف النفس للجواب^(٢).

أو أن الفاء في (فقل) للترتيب والتعقيب ؛ لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر، فأمر ﷺ بالجواب مقرونا بفاء التعقيب.
وقد جرى بقاء التعقيب هنا لأمرين :

- إما للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل المشترك من بقاء الجبال تبعا لظنه عدم الحشر.

- أو للمسارعة إلى تعليم السائل المؤمن ؛ حفظا لعقيدته مما يقوله المنكرون^(٣).

(١) السائل قريش أو رجل من ثقيف مع قومه ، البحر المحيط ٧/ ٣٨٣، زاد المسير ٣/ ١٧٦.

(٢) نظم الدرر (٣٤٥/١٢).

(٣) هذا خلاصة ما نقله الألوسي عن الإمام الرازي، ينظر روح المعاني (٥٧٠/٨)، وينظر كذلك تفسير الإمام الرازي (١٠٠/٢٢) .

وأما ما ورد من المواضع التي يُظن فيها تخلف لهذا المعهود فهي لا تدخل معنا تحت هذا الأمر وهي كالآتي :

١- في سورة النساء في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا...﴾ (آية ١٥٣) فلم يذكر جوابه لأنه طلب وليس استفهاما .

٢- في سورة النازعات وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (آية ٤٢) فهو وإن كان سؤال استفهام ؛ لكنه لم يذكر جوابه في الكلام ، وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ لا يصلح جوابا .

٣- في سورة البقرة في قوله تعالى :
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (آية ١٨٦)؛
فقد ذكر الجواب ولم يكن بـ قل فاقترن بالفاء .

المبحث الثاني

معهود القرآن فيما يتعلق ببعض الموضوعات القرآنية

المطلب الأول

معهود القرآن فيما يتعلق بالأمر ببر الوالدين

جاءت الوصاة بالوالدين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة. فقد ورد الأمر صريحاً بالإحسان إليهما ، كما في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ العنكبوت (٨) ، وقوله :

- ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّنِي صَغِيرًا﴾ الإسراء (٢٤)، وورد ضمناً في سياق بعض من قصص القرآن ، كقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه كما قصتها سودة مريم^(١) ، فإن إبراهيم عليه السلام كان في غاية الأدب مع أبيه ، والبر به رغم كفر الأب وعداوته لابنه ، وكالثناء على يحيى عليه السلام ببره والديه في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ مريم (١٤).

- ومن العادات التي اطردت في القرآن الكريم أن يُسَبَقَ الأمر ببر الوالدين بالأمر بعبادة الله وحده وعدم إشراك غيره معه ، فدائماً ما يكون الأمر ببر الوالدين رديفاً للأمر بعبادة الله تعالى وحده، تعظيماً لحقهما، وتأكيذاً للأمر ببرهما، وتنقيحاً من عقوقهما.

- ففي سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ البقرة (٨٣).

(١) الآيات من (٤٢-٤٧) .

- المناسبة : في الآيات عود على بدء في مخاطبة بني إسرائيل التي انقطعت بالآيات الالتفافية السابقة، وذكر انحرافاتهم والتنديد بهم وربط حاضريهم في عصر النبي ﷺ وبيئته بأسلافهم القدماء. وقد تضمنت تذكيرا بالعهود التي أخذها الله على بني إسرائيل وتنديدا بالحاضرين بسبب نقضهم لها ^(١).

- اللغة : الميثاق: العهد الشديد المؤكد، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم .

- وقد أفاد الإمام الرازي أن إرداف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه:
- الأول: أن نعمة وجود الوالدين أعم النعم، ونعمة الله تعالى على العبد أعظم، فكان لا بد من تقديم شكر النعمة العظمى على شكر النعمة الأعم .

- الثاني : أن المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى ، والوالدان مؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر .

- الثالث : التشابه بين إنعام الوالدين على الولد وبين إنعام الله تعالى عليه فكل منهما لا يطلب عوضا على إنعامه .

- أقول : ويمكن القول إن ما يخص الوالدين في هذا الأمر أغلبي لا كلي ؛ إذ بعض الأباء والأمهات يرضن حتى بالإنعام على الأولاد، فضلا عن أن ينعم ثم يطلب العوض على ذلك. ولعل الإمام الرازي رحمه الله نظر إلى كون ذلك قليلا غير معتبر في جانب الكثرة الغالبة .

- الرابع: أن العبد مهما عصى وتمادى فإن الله تعالى لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن أساء إليهما. ومثلما قلت في الأمر الثالث أقول هنا ، لأن من الوالدين من تقسو قلوبهم على أولادهم لأدنى جفاء من الولد فيحرمه من كل شيء .

(١) التفسير الحديث ١٨٩/٦.

- **الخامس:** كما أن الوالد يثمر مال ولده ويطلب زيادته، ويصونه عن البخس والنقصان، فكذا الحق سبحانه وتعالى يثمر أعمال العبد الصالحة وينميها، ويصونها عن الحبوط .

- **السادس:** أن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله فلا جرم كانت نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى. اهـ^(١) .

- وكذلك في سورة النساء^(٢) .

- وفي سورة الأنعام ورد الأمر بالإحسان إلى الوالدين في سياق تعداد ما حرم الله تعالى على الناس من رديئ الأخلاق ومردول الصفات ، مما اتفقت فيه كل الشرائع ، قال تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام (آية ١٥١) .

- وكذلك في سورة الإسراء^(٣) ، وسورة لقمان ورد فيها الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقيب النهي عن الشرك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾^(٤)

(١) ملخص من مفاتيح الغيب ٥٨٦/٣ .

(٢) في قوله تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) النساء (٣٦) .

(٣) في قوله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (٢٣) .

(٤) لقمان (١٣، ١٤) .

وما ورد في سورة الأحقاف مما ظاهره مخالفة هذا المعهود^(١) ؛ فالأمر بالإحسان إلى الوالدين وإن لم يردف الأمر بعبادة الله تعالى وحده ، لكنه جاء في سياق ممتد من أول السورة ينادي بإثبات عجز كل ما عبد من دون الله تعالى ، وتناهي ضلال من ينادي معبوداً أصم ، لا يستجيب لداعيه ولو ظل يدعوه إلى يوم القيامة ، فهذا بمفهومه أمر بعبادة الله وحده، وعدم الإشراف به، كما في المواضع المشار إليها آنفاً، في غير سورة الأحقاف. فيتحقق اطراد هذا المعهود في هذا الموضع أيضاً ، وأما الموضع في سورة العنكبوت فظاهره كذلك أنه لم يردف الأمر بعبادة الله وحده ، لكن بالنظر في السياق نجد أن الوصية بالوالدين سبقت بآيات فيها بعض من صفات الجلال والكمال ، كالعلم ، والقدرة ، والغنى عن العالمين، وهذه الصفات لا تكون إلا للاله الواحد المستحق للعبادة دون سواه ، أو بملاحظة السياق الممتد - أيضاً- في نهاية سورة القصص وهي السورة السابقة لسورة العنكبوت في الترتيب المصحفي؛ حيث ختمت السورة بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص (آية ٨٨) ، فيمكن بهذا إلحاق هذين الموضعين بما سبقهما. ويكونان مما اطرده من معهود القرآن الكريم في هذا الأمر.

(١) في قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ...) (الأحقاف ١٥) .

المطلب الثاني

معهود القرآن فيما يتعلق باستخدام ما يرشح المعنى من ألفاظ

تعريف الترشيح لغة واصطلاحاً

الترشيح لغة: أَنْ تُرَشِّحَ الْأُمُّ وَلَدَهَا بِاللَّبَنِ الْقَلِيلِ تَجْعَلُهُ فِي فِيهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى يَقْوَى لِلْمَصِّ^(١)، وَأَنْ تُمْشِيَ الظُّبْيَةُ وَلَدَهَا ، أَوَّلَ مَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ لِيُرْشَحَ عِرْقًا وَيَقْوَى ، تُدَرِّجُهُ إِلَى السَّعْيِ تَدْرِيجًا، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِكُلِّ مَنْ رُبِّيَ لِأَمْرٍ^(٢) .

فمدار معنى الترشيح في اللغة على التربية والتقوية .

والترشيح في اصطلاح البلاغيين : هو أَنْ يُوْتَى بِكَلِمَةٍ لَا تَصْلَحُ لِمَضْرَبٍ مِنَ الْمَحَاسِنِ حَتَّى يُوْتَى بِلَفْظَةٍ تَوْهِّلُهَا لِذَلِكَ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا ... تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَى شَفِيرٍ هَارٍ^(٣)

فذكره الشفير لتتحقق التورية- في قوله (الرجاء)- برجا البئر أي حافته، ولو لم يفعل لكان من رجوت الأمر، لقوله أولاً: وإذا رجوت المستحيل^(٤)..فقد جاء بكلمة الشفير تقوية للمعنى الذي يقصده وهو استحالة تحقق ما يرجوه ، كمن يبني جانبي البئر على حافة هائرة سرعان ما تنهار .

وأقصد بالترشيح هنا المعنى اللغوي ؛ أعني التقوية. حيث يؤتى في الآية بلفظ أو أكثر يقوي ويرسخ المعنى الذي ترمي إليه الآية. فغالب القضايا التي تناولها القرآن استخدم فيها ألفاظاً تؤيد وتقوي المعاني المراد تقريرها في تلك القضايا .

(١) تهذيب اللغة (رشح) .

(٢) مجمل اللغة لابن فارس باب الراء والشين وما يثلثهما (٣٧٨) .

(٣) البيت لأبي الحسن محمد بن علي التهامي من شعراء القرن الخامس ، يرثي فيها ولده وقبل هذا البيت :

وَمَكَتْ الْأَيَّامُ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَنُودَ نَارٍ

وبعده :

فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارٍ

ينظر : الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصي ١٢٥/٧ .

(٤) تحرير التحبير ٢٧١ ، خزنة الأدب ٢/٢٩٩ .

وقد أفاد العلامة الطيبي رحمه الله في حاشيته على الكشاف أن الترشيح في هذا الصدد ليس هو في عرف البلاغيين؛ وإنما هو كالتربية والتقوية لفائدة كلام بولغ فيه^(١).

ومثال ما جاء فيه ترشيح وتأيد للمعنى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (آية ٧٤).

المناسبة :

لما كان حصول المعصية منهم بعد رؤية هذه الخارقة مستبعد التصور فضلاً عن الوقوع ؛ أشار إليه بقوله ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾^(٢).

اللغة :

(ثم) للتراخي الرتبي ، أفادت استبعاد حدوث القسوة من بعد ما ذكر مما يوجب لين القلوب.

(قست) القساوة يقال في الصلب الذي لا تخلخل فيه كالحجر ونحوه، وقيل: قلب قاس تشبيهاً به .

(أشد قسوة) الفعل قسا مما يصاغ منه أفعال التفضيل (أقسا) لكن الآية جاءت على هذا النحو لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة^(٣).

البلاغة :

﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ مجاز عقلي في إسناد الخشية إلى الحجارة ، والجملة مجاز عن الانقياد لأمر الله .

(١) ينظر: فتوح الغيب ٥٥٤/١١ .

(٢) ينظر نظم الدرر للبقاعي (٤٨٠/١) .

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (٢٣٣/١) ، الكشاف (١٥٥/١) .

والمعنى : ثم صلبت وغلظت قلوبكم يا بني إسرائيل من بعد رؤيتها ما يوجب إيمانها ؛ من إحياء القتيل وإخباره بقاتله، والمسح قردة وخنازير، ورفع الجبل فوق الرؤوس، وانبجاس الماء من حجر .

والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا مثله في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾^(١)

فهي استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييه ومميتهم وباعثهم^(٢). هذا إذا كان الخطاب لبني إسرائيل زمن موسى عليه السلام ، أما إن كان الخطاب للحاضرين من بن إسرائيل زمان النبي ﷺ فالمعنى: ثم قست قلوبكم يا كفار بني إسرائيل فلم تقبل الحق الذي جاء به محمد ﷺ من بعد سماع تلك الآيات الباهرة . فحال قلوبهم أنها كالحجارة، بل إنها أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد يكون فيها رحمة، أو يجعلها الله تعالى سببا للرحمة، وهي الحجارة التي تتفجر منها الأنهار حين تهطل عليها الأمطار وابلا، فينفجر منها ومن صخورها أنهار تجري ، أما هؤلاء فلا رجاء للرحمة فيهم قط، لأن القلوب إذا جفت فيها ينابيع الرحمة لا تخرج رحمة من بعد ذلك^(٣).

والمعنى الذي قصدت الآيات إلى تقريره هو شدة قساوة قلوبهم بالإشارة إلى كونها كالحجارة قسوة ، بل أشد قسوة منها . وقد رُشِّح هذا المعنى بذكر خواص بعض الحجارة ، وهي التي تنفجر منها أنهار تكون سببا للحياة وللرحمة.

ومن قبيل ما سبق جاء قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ آل عمران ١٥٦ .

(١) من قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) (الأنعام آية ٢) .

(٢) الكشف ٤/٢ ، المحرر الوجيز ٢٦٥/٢ .

(٣) بتلخيص من زهرة التقاسير ٢٧٣/١ .

اللغة :

الضرب في الأرض: الإبعاد في السفر. وُغْزِي: جمع غاز^(١).

المناسبة :

لما بين المولى - سبحانه - فيما سبق أن الهزيمة التي حلت بالمؤمنين يوم أحد، كانت بوسواسٍ من الشيطان استزلهم به، فزلوا، حذرهم هنا من مثل هذه الوسوسة التي أفسد بها الشيطان قلوب الكافرين .

المعنى :

ينهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين الذين قالوا عن إخوانهم وأصدقائهم إذا سافروا للتجارة والكسب فماتوا ، أخرجوا للغزو فقتلوا ؛ قالوا عنهم أنهم لو كانوا مقيمين في المدينة ما ماتوا في سفرهم ، وما قتلوا في غزوهم. والله تعالى قد جعل ذلك القول الباطل والظن السيئ حسرة في قلوب المنافقين على ذهاب إخوانهم ،

فالتقتال لا يقطع الآجال، لأن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، وليس للإقامة والسفر مدخل في الحياة والموت، فلا تقولوا أيها المؤمنون هذا القول المذكور، ولا تعتقدوا مضمونه^(٢).

أما عن الترشيح فهو في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ حيث جاء تقوية لمعنى ما سبق من نهى الذين آمنوا عن أن يكونوا مثل المنافقين^(٣) في اعتقادهم ، وقولهم المذكور آنفاً، وهو: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ فجاء قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رداً على قولهم هذا، والمعنى : كل ذلك بيد

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ٩٤٣/٣.

(٢) بتصرف من حدائق الروح والريحان ٢٠٦/٥ .

(٣) إما أن يكون القائل هو عبد الله بن أبي بن سلول ، أو جميع المنافقين ، أو الكفار عامة ويكون المراد بإخوانهم إخوانهم في الكفر ، ويكون المراد ما يصيبهم من موت في سفر، أو قتل في غزو، على العموم لا خصوص حادثة بعينها، ويكون المراد بالأخوة إما في النفاق أو في النسب. ينظر: الطبري ٣٣١ / ٧ ، فتح القدير ٤٥٠ / ١ .

الله سبحانه يصنع ما يشاء ويحكم ما يريد، فيحيي من يريد، ويميت من يريد من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر في ذلك^(١).

ومثل ما سبق أيضا قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الأنعام (الآية ١٣٣).

سياق الآية ومناسبتها : لما بين الله تعالى ثواب أصحاب الطاعات وعقاب أصحاب المعاصي والمحرمات وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة ؛ بين هنا أن تخصيص المطيعين بالثواب والمذنبين بالعذاب ليس لأجل أنه محتاج إلى طاعة المطيعين ، أو ينتقص بمعصية المذنبين^(٢) فإنه تعالى غني عن كل ما سواه كائنا ما كان ، فلا يحتاج إلى غيره ، والكل محتاج إليه ، ولا غني على الحقيقة إلا هو فهو الرب الذي يتولى الوجود كله بربوبيته،

وافتحاح الآية بقوله : ﴿وَرَبُّكَ﴾ ترشيح لمعنى كون الغني من لا يحتاج إلى غيره فيكون في غناء عن الغير ، ومن هو قائم على الوجود لا يحتاج لأحد في الوجود، وقد ذكر سبحانه أنه الغني وحده، فكل من في الوجود يحتاج لغيره والله تعالى لا يحتاج إلى أحد، تعالى الله عن الاحتياج علوا كبيرا، وقد عرف الله سبحانه وتعالى الطرفين في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ وتعريف الطرفين يدل على القصر أي لا غني في الوجود سواه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣).

وكذلك قوله تعالى :

﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ بِاللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ النمل (الآية ٦٠) .

(١) فتح القدير ١/ ٤٥٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٥٣/١٣ .

(٣) فاطر (١٥) والنقل بتصرف من زهرة التفاسير (٢٦٧٩/٥) .

فإن السياق لما عقد موازنة - صورية - بين الإله الواحد القادر وبين آلهتهم في قوله ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أضرب - لإفادة الاختصاص - إلى : بل أمن خلق السماوات والأرض خيراً؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خيراً من جماد لا يقدر على شيء. وهذه القدرة على تلك الأفعال العظيمة خاصة به دون غيره، ثم التفت من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ تأكيداً لهذا الاختصاص. ثم رشح هذا الاختصاص بقوله ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي لا يصح، ولا يستقيم من أحد أن يفعل هذا، بل هو من خصائص الإله القادر سبحانه، وغيره أحقر من أن يفعله، ثم رشح هذا التحقير بالالتفات من الخطاب في قوله ﴿لَكُمْ﴾ إلى الغيبة في ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾. ففي الآية ترشيحان .

المطلب الثالث

معهود القرآن فيما يتعلق بالإخبار عن المستقبل بالماضي

التعبير عن المستقبل بالماضي معهود وفاش في الأساليب العربية ، ومنه قول امرئ القيس :

أَلَا أَبْلُغُ بَنِي حُجْرٍ بَنِ عَمْرٍو ... وَأَبْلُغُ ذَلِكَ الْحَيَّ الْحَدِيدَا
بَأْنِي قَدْ هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... سَحِيقًا مِنْ دِيَارِكُمْ بَعِيدَا (١)

فقوله " بَأْنِي قَدْ هَلَكْتُ " تعبير عن المستقبل بالماضي لأنه قاله حين حضرته الوفاة غريبا عن قومه . وهو لما يمت بعد .

الغرض من استعمال هذا الأسلوب:

والغرض من هذا الأسلوب الإخبار بتحقيق وقوع المخبر به ، فكأنه قد وقع وانقضى وفرغ منه .

وقد استعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب كثيرا .

أنواع المخبر به في القرآن الكريم وأغراضه :

القرآن الكريم في هذا الصدد إما أن يخبر عن أمر دنيوي أو أخروي ، وفي كلتا الحالتين فالإخبار يكون من قبيل المجاز، وليس الأمر على حقيقته، والتجوز فيه يكون بالإخبار بوقوعه وهو لَمَّا يقع بعد، ويكون ذلك للأغراض الآتية :

أغراض الإخبار عن المستقبل بالماضي:

أولاً : إن كان المخبر بوقوعه من أمور الدنيا فالغرض من الإخبار بالماضي عن المستقبل يكون :

أ (لإظهار الرغبة في حصول الفعل ، فيُنزَل كالحاصل المتقرر، كما في قوله تعالى :

(١) ينظر ديوان امرئ القيس ٨٩ .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ البقرة ٢١٥ .

فقوله ﴿مَا أَنْفَقْتُ﴾ شرط، والفعل ﴿أَنْفَقْتُ﴾ أريد به الاستقبال كما هو مقتضى الشرط، والتعبير بالماضي للغرض المذكور آنفاً . واللام في ﴿لِلوَالِدَيْنِ﴾ للملك، بمعنى الاستحقاق، أي فالحقيق به الوالدان ، والمعنى إن تنفقوا فأنفقوا للوالدين أو أعطوا للوالدين^(١).

ب (ويكون الغرض كذلك للإخبار بتحقيق وقوعه فهو بمنزلة ما وقع وانقضى، كقوله تعالى :

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة ١٢٤ ، ١٢٥) .

فقد أخبرت الآيات أن السورة أو الآيات التي تنزل تزيد المنافقين كفرًا مضموماً إلى كفرهم الأصيل ، لأنهم معاندون ، والمعاند يزيد قوة الدليل عناداً، فكلما زاد الدليل في الحق زاد المنافق لجاجة في الباطل فزاد كفرًا ، ولا احتمال لتوبته وعودته إلى الحق، لذا قال تعالى: (وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) أي استمروا معاندين للباطل، حتى حال موتهم، فيموتون وهم كافرون، وعبر بالماضي لتأكيد هذه الحال التي يموتون عليها^(٢) .

وكقوله تعالى :

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ مريم ٣٠-٣١ .

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/٢ بتصرف .

(٢) زهرة التفاسير ٣٤٩٠/٧ بتصرف .

فعيسى عليه السلام لم يزل صبيا في المهد ، ولم يكن ثمَّ كتاب قد أوتيهِ ، أو نبوة قد تشرَّف بها ، ولا أوصاه الله بصلاة أو زكاة ، لكن التعبير جاء في الأفعال كلها بالماضي لتحقيق وقوعها ، وفي الإخبار بذلك إيدان بأنه سيعيش إلى أن يكلف بالنبوة وسائر ما أخبر به .

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح آية ١) فقد جاء الإخبار عن الفتح بلفظ الماضي؛ والسورة نزلت مرجع النبي ﷺ من الحديبية سنة ست من الهجرة ، ولم يكن ثمَّ فتح ، فقد كان فتح مكة في سنة ثمان ، لكن جاء الإخبار على هذا النحو إيدانا بأنَّ الله تعالى إذا أخبر خبرا فهو محقق الوقوع لا محالة .

وأیضا قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ (سورة المسد) .

فهذا إخبار بما يفيد موت أبي لهب وزوجه على الكفر ؛ لأن السورة ذكرت خسران أبي لهب ، ودخوله النار في الآخرة ولا يكون ذلك إلا بموافاته على الكفر، وهو في الواقع قد مات كافرا بعد نزول السورة بسنوات. فالتعبير بالفعل ﴿تَبَّ﴾ ماضيا في الموضعين دليل على تحقق الوقوع^(١) .

جـ () ويكون الغرض كذلك تغليب المحقق على المقدّر، أو تنزيل ما في شرف الوقوع - لتحقيقه - منزلة الواقع، كقوله تعالى :

(١) يندرج المخبر عنه من هذه الأمور التي وقعت بعد نزول الآيات - وفق ما أخبر عنه تحت ما يمكن تسميته توسعا بالإعجاز الإخباري ؛ أو الغيبي لأن فيه إخبارا بغيب وقع بعد ذلك على وفق ما أخبر به ، ففيه الدليل على حقيقة القرآن ، وكونه كلام الله تعالى لا كلام غيره ، وهو كذلك من دلائل نبوة النبي ﷺ .

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤)، فالتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه مترقبا وقتئذ؛ دلالة على تحقق نزوله ، واكتمال نزوله ولو بعد حين .

ومثله قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَكَأَيِّنَّتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود ٨١) .

فقوله تعالى: (مَا أَصَابَهُمْ) جاء ماضيا - مع أن العذاب لما يقع بعد - لتأكيد الوقوع ، وقد تم تعيين موعد نزول العذاب في قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي أن العذاب نازل بهم في الصباح وإنه لقريب^(١).

ثانيا: إن كان المخبر عنه من أمور الآخرة وجاء الإخبار بالماضي فالغرض منه أمران :

أحدهما : التنبيه على قرب أمر الآخرة ، فكأن الساعة قد أتت ووقع ما يريد الله إيقاعه.

والثاني: المبالغة في تأكيد أمر وقوعه، فصار - بحصول القطع والجزم بوقوعه - كأنه قد وقع وحصل^(٢) .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ فبمقتضى الحديث عن أمر في المستقبل ينبغي أن يكون المعنى : ثم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل إلى الله الذي هو مولاهم الحق ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، فكان الأصل أن يعبر عنه بفعل الاستقبال كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة (٩٤)، لكن عبر هنا بالماضي لإفادة تحقيق الوقوع حتى كأنه وقع وانقضى^(٣) .

(١) زهرة التفاسير ٣٧٣٦/٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٦١/٥ .

(٣) المنار ٤٠٤/٧ بتصرف .

وكقوله تعالى :

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ (الأعراف ٤٤) وَالْمَعْنَى: أن أصحاب الجنة سوف ينادون أصحاب النار ، حتى إذا ما وجهوا أبصارهم إليهم سألوهم سؤال تبجح وافتخار بحسن حالهم، وتهكم وتذكير بما كان من جنابة أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل، وتقرير لهم بصدق ما بلغوهم من وعد ربهم لمن آمن وأصلح بنعيم الجنة قائلين. قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا وها نحن أولاء فيه، فهل وجدتم ما وعد ربكم من آمن به وبما جاءت به رسله حقا؟^(١).

فما سبق من محاوراة بين أهل الجنة وأهل النار هو من أمور الآخرة ، وهي لما تقع بعد ، لكن عبر عنها بالماضي للتنبيه على قرب أمر الآخرة ، وللمبالغة في تأكيد أمر وقوعه.

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (الحج ١٩). حيث جاء التعبير عن المستقبل بالماضي ، في قوله : ﴿ قُطِعَتْ ﴾ ؛ لأنه بمعنى إعدادها لهم ، أو إشارة إلى تحقق الوقوع . وكذلك كل ما كان من أمور الآخرة وأحوالها .

سؤال وجوابه :

ثم سؤال يتعلق بهذا الموضوع - أعني التعبير عن المستقبل بالماضي - وهو: إذا عبر القرآن الكريم عن المستقبل بالماضي فهل يشترط وجود قرينة في الكلام تدل على إرادة المستقبل ؟

فمثلا عند التعبير عن الماضي بالمستقبل - وهو عكس مانحن بصدده - في قوله تعالى ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة آية

(١) المنار ٣٧٨/٨ .

(٩١) أي فلم قتلتم ، فعبر عن الماضي بالمضارع لقصد استحضار الحالة الفظيعة ، وليبيان أن الخلف منهم على نفس ما كان عليه أسلافهم من تلكم الأخلاق الدنيئة ، وهو ما شهدت به حوادث السيرة النبوية من أفعالهم .

ففي هذا المثال وُجِدَت القرينة الدالة على حدوث الفعل في الماضي وهي قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

أما مانحن بصده فقد ورد في الشعر التعبير عن المستقبل بالماضي مع وجود القرينة كقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقي ربه ... أن الوليد أحق بالعدر^(١)

أي سيشهد... بقرينة قوله : يوم يلقي ربه .

فظهر وجود القرينة الدالة على إرادة المستقبل .

وتم سؤال آخر ، وهو : هل اشتراط وجود القرينة مطرد في هذا الأمر ؟

أقول والله أعلم : بالاستقراء وجدت أنه لا بد من قرينة في الكلام تدل على إرادة الاستقبال ، وهذه القرينة إما مقالية بحيث يرد ذكرها في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ فقد عبر بلفظ الماضي مريداً به المستقبل والقرينة فيه قوله تعالى ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ، لأن النهي عن استعجاله يدل على أنه لما يقع بعد ، وإما أن تكون القرينة حالية كأن يكون سياق الكلام مثلاً في أمر لم يقع ، كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف ٤٤) فالسياق هنا في أحوال أهل الجنة وأهل النار وما يكون من شأنهم ، وذلك من أمور الآخرة وهي لما تقع بعد .

(١) البيت من الكامل وهو للحطيئة جرول بن أوس بن مالك بن جوية بن مخزوم بن مالك. من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. طبقات فحول الشعراء ٩٧/١ ، وذكر ابن حجر ترجمته في الإصابة ١٥٠/٢. والبيت المذكور قاله الحطيئة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط. ينظر ديوان الحطيئة ص ١١٠ ، و تهذيب اللغة ولسان العرب (حسب) ، والمعني سيشهد ، والقرينة : يوم يلقي ربه .

ومثله قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ الزمر (٦٨) ، فالنفخة الأولى والصعق والنفخة الثانية كل ذلك سيقع في المستقبل . لكنه الآن في حكم الواقع بالفعل .

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة (١٢٥). فإن من نزلت فيهم الآيات كانوا موجودين وقت نزولها وهم المنافقون ، والقرينة هنا قرينة حالٍ، ولكن الله تعالى عبر عن موتهم على الكفر بالماضي لتحقيق وقوعه.

المطلب الرابع

معهود القرآن فيما يتعلق باستعمال الأفصح وتقديمه على الفصح

من الملاحظ في القرآن الكريم ويرتقي إلى أن يكون معهودا استعماله للألفاظ التي هي في الذروة من الفصاحة؛ وترك ما دونها مما يؤدي نفس المعنى وإن كان فصيحاً في نفسه .

- وقد جمعت تحت هذا العنوان عدة أنواع ؛ هي إجمالاً:
- تقديم الحمل على اللفظ على الحمل على المعنى إذا اجتمعا.
 - تقديم المفضل عليه على التمييز في حال اجتماعهما.
 - معاملة جمع القلة - لما لا يعقل - معاملة الإناث أي جمع المؤنث، فيعود الضمير عليه كما يعود عليهن.
 - معاملة جمع الكثرة - لما لا يعقل - معاملة المفرد .
 - اتصال ثاني ضميري المفعولين بالأول .
 - ومن استعمال الأفصح في المفردات استعمال اسم فعل الأمر (هَلُم) .
 - ومن استعمال الأفصح وترك الفصح في المفردات كذلك كلمة (زوج) .
- وتفصيل هذه الأنواع كالتالي :

(أ) تقديم الحمل على اللفظ على الحمل على المعنى إذا اجتمعا ، كأن تجيء كلمة لفظها مفرد ومعناها جمع ، ويجتمع في هذا الموضع الحمل على كليهما فإنه يقدم الحمل على اللفظ في الذكر على الحمل على المعنى؛ لأن هذا التقديم هو الأفصح في لغة العرب ، قال أبو حيان - رحمه الله - : "إذا جمعت بين الحملين، فالأصح أن تبدأ أولاً بالحمل على اللفظ، ثم بالحمل على المعنى. وعلى هذا الأفصح جاء قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾. البقرة (٢١٧) ^(١).

فأتى بقوله : ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ مفرداً ، حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ وأتى بقوله:

(١) البحر المحيط (٢/ ٣٩٤).

﴿ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ جمعا ؛ حملا على معناها .

- وكذلك قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة (١١٢) .

فجاء قوله ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ بالإنفراد حملا على لفظ ﴿ مَنْ ﴾ ، مقدما على قوله ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الذي هو بالجمع حملا على معناها ، مراعاة للأفصح في لغة العرب .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ النساء (١٣) وقوله ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ النساء (١٢٤) .

ب) ويندرج تحت هذا النوع أعني استعمال الأفصح :
تقديم المفضل عليه على التمييز في حال اجتماعهما
كقوله تعالى :

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ البقرة (١٣٨) .
وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء (٥١) .

وقوله ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ.. ﴾ المائدة (٦٠) .
فاسم الجلالة ، والذين آمنوا ، واسم الإشارة ، المذكورون في الآيات السابقة ، كلهم مفضل عليه قُدِّمَ على التمييز ، (صِبْغَةً ، و سَبِيلًا ، و مَثُوبَةً) (على التوالي) وهو أفصح وأكثر استعمالا في لغة العرب ، وقد جاء القرآن على وفقه ، وذلك معهود في القرآن .

قال أبو حيان رحمه الله : وانتصب مثوبة هنا على التمييز، وجاء التركيب الأكثر الأفصح من تقديم المفضل عليه على التمييز كقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء (٨٧) . اهـ . (١)

قلت : ولم أجد من أشار إلى هذه العادة في القرآن الكريم من المفسرين أو من علماء النحو (حسب اطلاعي) إلا أبا حيان رحمه الله - في تفسيره ، حتى تلميذه السمين الحلبي لم أفف له - فيما بحثت - على كلام في هذا الأمر . وبالاستقصاء - قدر الطاقة - وجدت أن الآيات التي قدم فيها المفضل عليه على التمييز نيف وعشرون موضعاً ، بينما الآيات التي قدم فيها التمييز على المفضل أقل من عشرة مواضع . فلعل هذا ما دعا أبا حيان إلى قوله الأنف . ويكون مما تفرّد به ، رحمه الله . (٢)

(١) البحر المحيط ٣٠٦/٤

(٢) من المواضع التي قدم فيها المفضل عليه على التمييز : قوله تعالى : (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) (النساء ١٢٢) .
و (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة ٥٠)
و (قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ) (المائدة ٦٠)
و (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا) (التوبة ٦٩) عطف على أشد منكم قوة .
و (وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا) . (الكهف ٢٤)
وقوله حكاية لقول صاحب الجنتين : (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) (الكهف ٣٤)
و (وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُدُّنَّ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف ٣٦)
و (وَلَوْ لَأَنَّ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ لَنَا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا الْكَهْفُ) (٣٩)
و (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) (الكهف ٨١)
و (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا) (الفرقان ١٠)
و (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) (القصص ٣٤)
و (أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا) (القصص ٧٨)
و (كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) (الروم ٩)
و (وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) (فاطر ٤)
و (كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا فِي الْأَرْضِ) (غافر ٢١)
و (كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا فِي الْأَرْضِ) (غافر ٨٢)
و (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) (فصلت ١٥)
و (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) (الزخرف ٨)
و (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) (سورة ق ٣٦)

ولعل النكتة في تقديم المفضل عليه على التمييز وكونه الأفصح؛ كون المفضل عليه هو المعني المقصود بالحكم ، فقدّم على التمييز .

وورد في القرآن الكريم تقديم التمييز على المفضل عليه - وهو عكس ما نحن فيه - وهو من الفصيح لا الأفصح كقوله تعالى :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فصلت ٣٣ . (١)

وردت آيات من هذا القبيل في القرآن الكريم في غير ما موضع كقوله تعالى :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء ١٢٥) .

وقوله :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ محمد ١٣ .

وقوله :

﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ الحديد ١٠ ،
وقوله : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾
الحشر ١٣ .

ولعل السبب في استعمال الفصيح دون الأفصح في آيات هذا النوع؛ أنه لو جرى الكلام على الأفصح فقدّم المفضل عليه على التمييز؛ للزم الفصل بين أفعال التفضيل والتمييز بكلام طويل، ولكان في الكلام ركة -يتنزّه عنها كلام رب العالمين- وذلك واضح في أمثلة القسم الثاني، فمثلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فصلت ٣٣ لو قدّم فيه المفضل عليه وأخر التمييز؛ فقل في غير القرآن: "ومن أحسن ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين قولا . لدخله من الركاقة والهجنة وإفادة غير المقصود ما لا يخفى .

(١) البحر المحيط ٣٠٦/٤ .

وبهذا تظهر العلة في مخالفة القرآن الكريم لمعهوده في هذا النوع . والله أعلم .
ومما يصلح مثالا للقسم الثاني؛ أعني تقديم التمييز على المفضل عليه قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة (٧٤) فـ (قسوة) تمييز ، والمفضل عليه ضمير مجرور عائد إلى الحجارة ، وهو محذوف تقديره (منها) ، والحذف تم لأمن اللبس ، فيمكن أن يقال -في غير القرآن - أو أشد قسوة منها . بتقديم التمييز على ضمير المفضل عليه (١).

(ج) معاملة جمع القلة - لما لا يعقل - معاملة الإناث أي جمع المؤنث

فيعود الضمير عليه كما يعود عليهن، وهو الأفصح ، وقد وافق القرآن هذه القاعدة في قوله تعالى : ﴿ الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ البقرة (١٩٧) ، فأعاد الضمير المجرور ﴿ فِيهِنَّ ﴾ على الأشهر وعامله معاملة جماعة الإناث لأنه جمع قلة غير عاقل ، لأنه أفصح من أن يعامل معاملة الأنثى - مع كون الأخير فصيحاً - لكن القرآن يأتي دائماً موافقاً للأفصح الأشهر من كلام العرب ، ولا يتخلف ذلك إلا لعدة .

(د) معاملة جمع الكثرة - لما لا يعقل - معاملة المفرد .

قال تعالى :

﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (١٨٩).

قال أبو حيان : الضمير في: أبوابها، عائد على البيوت. وعاد كضمير المؤنث الواحدة، لأن البيوت جمع كثرة، وجمع المؤنث الذي لا يعقل فرق فيه بين قليله

(١) ومثله قوله تعالى : (وَإِذَا نُلِتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَثَةً . قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْنُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا) . مريم (٧٣) ، وقوله (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا) . الجن (٢٤) .

وكثيره، فالأفصح في قليله أن يجمع الضمير، والأفصح في كثيره أن يفرد. كهو في ضمير المؤنث الواحدة، ويجوز العكس.(١)

وقد قرر اللغوي التحرير العلامة يحيى بن زياد الفراء هذه المسألة عند تفسير هذه الآية بما لا مزيد عليه فأفاد رحمه الله أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ التوبة (٣٦) قد أعيد الضمير في قوله (فيهنّ) تارة إلى الاثني عشر. وتارة إلى الأشهر الحرم وهو ما رجحه رحمه الله ، قال : ليتبين بالنهي فيها عِظْمُ حُرْمَتِهَا، كما قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ ثم قال: ﴿وَالصَّلَاةَ الْوُسْطَى﴾ فعُظِّمَتْ، ولم يرخص في غيرها بترك المحافظة. وَيَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ لِلْأَرْبَعَةِ - والله أعلم - قوله: (فيهنّ) ولم يقل (فيها) . والعرب تقول لِمَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ: ثَلَاثَ لَيَالٍ خُلُونِ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ خُلُونِ، فَإِذَا جُزَّتِ الْعَشْرَةُ قَالُوا: خَلْتُ، وَمَضَتْ. ويقولون لِمَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ (هَنْ) وَ (هَوْلَاء) فَإِذَا جُزَّتِ الْعَشْرَةُ قَالُوا (هِي، وَهَذِهِ) إِرَادَةَ أَنْ تَعْرِفَ سِمَةَ الْقَلِيلِ مِنَ الْكَثِيرِ. وَيَجُوزُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مَا جَازَ فِي صَاحِبِهِ (٢).

أقول :

ومثله قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾

فـ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ صفة لحقائق ، وساغ إفراده لأن المنعوت (حدائق) جمع كثرة لما لا يعقل فقال (ذات بهجة) ولم يقل ذوات بهجة .
وقوله تعالى :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ فكلمة (خُشْبٌ) جمع كثرة لما لا يعقل وهو خشبة ، وصفت بقوله (مُسْنَدَةٌ) ولم توصف بمسندات طبقا لما جرت عليه عادة القرآن في هذا الصدد .

(١) البحر المحيط (٢/٢٣٩) .

(٢) معاني القرآن للفراء (١/٤٣٥) . بتصرف .

ومثله أيضا قوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ الحاقة (٢٣) ، وسورة الغاشية حافلة بالأمثلة لهذا النوع .

ويجمع النوعين الأخيرين - أعني معهود القرآن في النقطتين (ج ، د) - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُفَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة (٣٦).

فإن كلمة (الشهور) جمع كثرة، فلما أعاد الضمير عليها أفردته فقال : (منها) ، ولم يقل (منهن) وحين أعاد الضمير على (أربعة) التي هي جمع قلة - لأن المعنى: أربعة أشهر حرم - أعاده بالجمع فقال: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ ﴾ ، وهو الأفصح، مع جواز العكس ، لكن جرت عادة القرآن على اختيار الأفصح وترك الفصيح .

ومما يدل على جواز العكس في غير القرآن - أعني جواز عود الضمير مجموعا إلى جمع الكثرة ، وهو فصيح - قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قِراع الكتاب^(١)

فقال: بهن، والسيوف جمع كثرة ، والأفصح أن يقال: بها .

هـ) ومن الأفصح اتصال ثاني ضميري المفعولين بالأول .

من المعلوم أن الضمائر تستعمل في اللغة العربية بقصد الإيجاز ، لأنها عوض عن كلمات، لو ذكرت هذه الكلمات لاستطال الكلام ، وأصبح ركيكا، مجافيا للفصاحة، بعيدا عن سنن البلاغة . وتجنبنا لتلك الركة في الكلام استخدم العرب الضمائر بدل الأسماء الظاهرة ، قال السيوطي إن قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ

(١) البيت للنابغة الذبياني من قصيدة يمدح فيها عمرو بن الحارث الأعرج ، ينظر ديوانه بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٤٤ .

مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ أقام مقام خمس وعشرين كلمة لو أتى بها مظهرة . وكذا قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور ٣١) (٢) .

والضمائر في لغة العرب بعضها متصل بالكلمة وبعضها منفصل عنها، واستعملوا المتصل دون المنفصل ما أمكن ذلك تحقيقا للغرض السابق أعني الاختصار.

وعليه ؛ فكل موضع أمكن أن يؤتى فيه بالضمير المتصل لا يجوز العدول عنه إلى المنفصل. (٣)

لكن إذا اجتمع ضميران فما الحكم ؟

إذا اجتمع ضميران أولهما غير مرفوع وهو أخص من الثاني (٤)، والعامل فيهما غير ناسخ للابتداء؛ جاز فيهما الوصل والفصل لكن الوصل أرجح وأصح، (٥) وبه جاء القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة ١٣٧) (٦) فقد اتصل ضمير المفعول الثاني بضمير المفعول الأول ولولا إمكان اتصال ثاني الضميرين - بعد استيفاء الشروط - لكان الكلام : فسيفيك الله إياهم ؛ باتصال

(١) هذا ختام قوله تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ ...) (الأحزاب ٣٥).

(٢) (الإتقان ٣٣٤/٢).

(٣) هذه العبارة مشهورة لدى النحاة وهي مأخوذة من قول ابن مالك :

وفي اختيار لا يجيء المنفصل ... إذا تآتى أن يجيء المتصل

لكن يستثنى منها بعض الحالات ذكرها ابن عقيل في شرحه لألفية ابن مالك كما سيأتي. ينظر شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك (٩٩/١).

(٤) الأخص هو الأعراف ، فضمير المتكلم أخص من المخاطب ، والمخاطب أخص من الغائب ، وإنما كان المتكلم أقرب ؛ لأنه حاضرٌ وهو أخص بالفعل بأنه أحق بإدراكه قبل غيره من سائر العباد، ثم المخاطب ؛ لأنه حاضرٌ للكلام، ثم الغائب. ينظر شرح كتاب سيبويه للرماني ص ٦٢١.

(٥) وهو ما عبر عنه ابن مالك في ألفيته بقوله :

"وَصِلْ أَوْ اقْصِلْ هَاءَ سَلْنِيهِ وَمَا أَشْبَهَهُ"

قال الأشموني :أي: وما أشبه هاء سلني، من كل ثاني ضميرين أولهما أخص وغير مرفوع، والعامل فيهما غير ناسخ للابتداء، سواء كان فعلا، نحو: "سلني"، و"سلني إياه"، و"الدرهم أعطيتك"، و"أعطيتك إياه"، اهـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٩٤/١).

(٦) (فَسَيَكْفِيكَهُمُ) الفعل (يكفي) فعل مضارع مرفوع ، والكاف مفعول به أول، والهاء مفعول به ثان، و(اللَّهُ) فاعل .

ضمير المفعول الأول وانفصال ضمير المفعول الثاني، وهو صحيح فصيح ، لكن الأفصح منه ما جاءت عليه الآية .

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (محمد ٣٠) فقله:

﴿ لَأَرَيْنَاكُمْ ﴾ اتصل فيه ضميرا المفعول، ولو انفصلا لجاز؛ وهو فصيح ، فيمكن في غير القرآن أن يقال : لأريناك إياهم ؛ لكن ما كان للقرآن أن يترك الأفصح ، ويأخذ الفصح (١).

وقوله ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا ﴾ (الأنفال ٤٣) وقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ (الأنفال ٤٤) وقوله: ﴿ أَنْزَلْنَاهُمْ ﴾ (هود ٢٨)، ، وقوله : ﴿ إِنْ يَسْأَلُكُمْ ﴾ (محمد ٣٧). والقول في هذه الآيات ما قيل فيما سبقها .

(و) ومن استعمال الأفصح في المفردات استعمال اسم فعل الأمر (هلم) (٢) على اللغة الفصحى ؛ لغة أهل الحجاز وذلك أنه في لغتهم تلزم هذه الكلمة حالة واحدة دون علامة تنثية أو جمع أو تأنيث للمفردة أو جمع الإناث، أما بنو تميم فإنهم يلحقون بها تلك العلامات المناسبة للمخاطب (٣).

والقرآن الكريم جاء على اللغة الفصحى - كما هو المعهود منه - لا الفصيحة، فجاءت الكلمة مرة لازمة كقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ (الأحزاب ١٨) ، ومرة متعدية كآية الأنعام (١٥٠) ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾.

(ز) ومن استعمال الأفصح وترك الفصح في المفردات كذلك كلمة (زوج) ، التي تستعمل في أصل وضعها للرجل والمرأة فإذا استعملت مراداً بها امرأة الرجل

(١) الدر المصون (٧٠٦/٩) .

(٢) اسم فعل أمر للحضور أو الإحضار وفيها لغتان ؛ إحداهما: يستوي فيها الواحد والمتنّى والجمع والمذكر والمؤنث. وهي لأهل الحجاز، والثانية: أنها تفرد وتلحقها علامة التنثية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، فيقال : هلمّا ، وهلموا ، وهلمي . وهي لأهل نجد. شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري ١٦٧/٤ ، مقامات الحريري ص ١٩٣ .

(٣) المقتضب للمبرد ٢٥/٣ ، المفصل للزمخشري ص ١٩٣ .

فتارة يقال (زوج) وأخرى يقال (زوجة) قد لحقتها علامة التأنيث ، وكلتا الكلمتين مستعملتان^(١)، لكن التي لم تلحقها علامة التأنيث أفصح وأكثر استعمالا في لغة العرب ، وبها جاء القرآن الكريم ، أفرادا وجمعا، فمثالها مفردة قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِطْرًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ النساء (٢٠) . أي أردتم مفارقة زوجة والتزوج بأخرى .

ومثالها جمعا قوله تعالى مخاطبا الرجال في شأن ميراثهم من نسائهم : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ النساء (١٢)، أي للرجل نصف ما تركت امرأته حال وفاتها إن لم يكن لها ولد منه، أو من غيره.

وقوله تعالى حاكيا إنكار لوط فعل الرجال من قومه بالرجال : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ الشعراء (١٦٥ ، ١٦٦) . أي من نسائكم الحلائل .

وقوله تعالى مبطلا ماكان موجودا في صدر الإسلام من إرث الجاهلية : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ الأحزاب (آية ٤) أي ما كانت المرأة أبدا بالنسبة لزوجها مكان الأم في العلاقة النسبية ، حتى يشبهها بأمة فيظاهر منها .

(١) قال ابنُ سيده: الرَّجُلُ زَوْجُ المرأة، وَهِيَ زَوْجُهُ وَزَوْجَتُهُ، وَأَبَاها الْأَصْمَعِي بِالْهَاءِ وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) . المحكم (زوج)، لكن استعمال الكلمة مؤنثة سمع من بني تميم فيقولون: هي زوجته، قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا صَاح، بَلَغَ دَوِي الزَّوْجَاتِ كُلَّهُمْ: ... أَنْ لَيْسَ وَصَلٌ، إِذَا انْحَلَّتْ عَرَى الدُّبِّ وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

وإِنَّ الَّذِي يَسْعَى يُحَرِّشُ زَوْجَتِي ... كَسَاعَ إِلَى أَسَدٍ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ أَيْضًا: هِيَ زَوْجَتُهُ، وَاحْتَجَّ بِنَبْتِ الْفَرَزْدَقِ. الصحاح ، ولسان العرب (زوج) .

فكلمة (زوج) - عارية عن علامة التأنيث - أفرادا وجمعا في الآيات السابقة يراد بها امرأة الرجل ، والقرينة هي أن الخطاب للرجال ، والضمانر التي بعد الأزواج تعود على الإناث . فاستعمالها بدون علامة التأنيث أفصح في لغة العرب ، وهو معهود قرآني .

المطلب الخامس

معهود القرآن فيما يتعلق باستعمال أقرب الكلمات في اللغة دلالة على المعنى المقصود

وذلك أن المفردات لا تؤدي تمام المعنى المراد إلا إذا كانت الكلمة تامة الدلالة - من حيث الوضع - على ذاك المعنى ، مناسبة تمام المناسبة له .

ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ آل عمران (٥٩) فقد عدل النظم الكريم عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد التراب، لأنه أدنى العنصرين، وأكثفهما ، لأن المقصود إبطال دعوى إلهية عيسى عليه السلام عند من ادعاها ، وذلك بالتصغير والتهوين من أمر خلقه ، فجئى بلفظة التراب وهي أنسب لهذا المعنى^(١)

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يوسف (٨٥) ، حيث أرادت الآية تصوير حالة الإنكار والاستغراب ممن هم حول سيدنا يعقوب عليه السلام لاستمراره في تذكر يوسف وبكائه على فراقه ، فجيء بأغرب ألفاظ القسم وأقلها استعمالا بالنسبة إلى أخواتها من ألفاظ القسم ، فإن والله وبالله أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من تالله، وكذلك جيء بالفعل الذي جاور القسم غريباً في باب، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ وأعرف عند الكافة، ثم جيء بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة لأخواتها من الألفاظ التي تستعمل في الدلالة على الهلاك، وهي لفظة (حرض)^(٢) . فجاءت الألفاظ متسقة مع المعنى المراد، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بامتثال اللفظ والمعنى.

أقول : ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ البقرة (١٤) ، يقال: خلا فلان بفلان، إذا اجتمعا في

(١) تحرير التحرير (١٩٤) بتصرف .

(٢) المصدر السابق (١٩٥).

خلوة^(١)، لكن في الآية عدي الفعل ﴿خَلَوْا﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ ليتضمن معنى آب ورجع، قال ابن عاشور رحمه الله: "وقد عدى هنا بالي ليشير إلى أن الخلوة كانت في مواضع هي مآبهم ومرجعهم وأن لقاءهم للمؤمنين إنما هو صدفة ، ولمحات قليلة، أفاد ذلك كله قوله : ﴿لَقُوا﴾ و﴿خَلَوْا﴾ " ^(٢)

وقيل (إلى) بمعنى (مع) كقوله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ الصف (١٤)، و ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ النساء (٢).

أقول : الأولى أن تكون ﴿إِلَى﴾ على بابها في إفادتها انتهاء الغاية المكانية ؛ ليضمّن الفعل معنى الرجوع والوصول إلى أوليائهم من شياطين الإنس ، فيكون لقاءهم بهم أطول من لقاء المؤمنين ، وهو ما لا يستفاد من تضمين (إلى) معنى (مع) . والله أعلم .

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران (٣٣) .

الاصطفاء : الاختيار ، والاستخلاص^(٣) ، والمعنى : إن الله اجتبى آدم ونوحًا واختارهما لدينهما ، وآل إبراهيم وآل عمران لدينهم الذي كانوا عليه، لأنهم كانوا أهل الإسلام^(٤). والاصطفاء هنا فيه معنى التفضيل، قال أبو حيان : (عَلَى الْعَالَمِينَ) متعلق بـ (اصْطَفَى)، ضَمَّنَهُ مَعْنَى فَضَّلَ، فَعَدَّاهُ بَعْلَى. وَلَوْ لَمْ يُضْمَنْهُ مَعْنَى فَضَّلَ لَعُدِّيَ بـ (مِنْ)^(٥). اهـ .

فاختيار (على) لتعدية الفعل أوقع وأنسب للمعنى من تعدية الفعل بنفسه، أو بـ (من) لوجود معنى التفضيل في التعدية بـ (على) .

(١) مجمل اللغة (٢٩٨/١) .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩١/١ .

(٣) (اللسان صفا) .

(٤) جامع البيان للطبري ٣٢٦/٦ .

(٥) البحر المحيط ١١١/٣ .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا آتَفَقَ فِيهَا ﴾ حيث تعلق الجار والمجرور (على ما) بالفعل ﴿ يُقَلِّبُ ﴾ وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة، وعدّي الفعل بـ (على) ، وكان حقه أن يعدى بالباء أو اللام ؛ لأنه ضمنه معنى ندم.^(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ الزخرف (٣٦) ومن يعش أي: من ينظر نظرا غير متمكن في القرآن، أي من لا حظ له من القرآن إلا سماع كلماته دون تدبرٍ وقصدٍ للانتفاع بمعانيه، فشبهه بنظر الناظر دون تأمل.

وعدي (يعش) بـ (عن) المفيدة للمجازاة لأنه ضمن معنى الإعراض عن ذكر الرحمن ، وإلا فحق الفعل عشا أن يعدى بـ (إلى)^(٢) كما قال الحطيئة :
مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ^(٣)

(١) بتصرف من حقائق الروح والريحان ٣٤٩/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٩/٢٥ بتصرف.

يقال: عَشَوْتُ إِلَى النَّارِ أَعْشَوْتُ إِلَيْهَا عَشْوًا، إِذَا اسْتَدَلَّتْ إِلَيْهَا بِبَصَرٍ ضَعِيفٍ ، إِصْلَاحُ الْمُنْطَقِ ص ١٤٨ .
وَالْعَشْوُ: مُصْدَرُ عَشَوْتُ إِلَى ضَوْئِكَ أَعْشَوْتُ عَشْوًا، إِذَا قَصَدْتَهُ بِلَيْلٍ، ثُمَّ صَارَ كُلُّ قَاصِدٍ شَيْئًا عَاشِيًا . وَالْمَعْنَى عَلَى قَوْلِ الْحَطِيبَةِ: مَتَى تَأْتِيهِ عَاشِيًا إِلَى نَارِهِ . جُمُهِرَةُ اللُّغَةِ ٨٧١/٢ . وَإِنْ صَدَرَتْ عَنْ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِهِ قُلْتَ عَشَوْتُ عَنْهُ . لِسَانُ الْعَرَبِ (عشا) .

(٣) تقدمت ترجمة الحطيئة ص ٣٥ ، . والبيت له يمدح فيه بغیض بن عامر . ينظر ديوان الحطيئة ص ٧٠ ، وشرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية ، لمحمد حسن شراب . ٣٠٨/١

المطلب السادس

تعقيب بعض الآيات التي فيها تكليف ومشقة بترجي التقوى

وما فيها رخصة ويسر بترجي الشكر

وقد تتبعت هذا المعهود في القرآن فوجدت أن الآيات التي عقت بترجي التقوى تتحدث عن أمور فيها تكاليف ، وأمور تحتاج في فعلها إلى مجاهدة وأطّر للنفس على الفعل ، وفي هذا من المشقة مافيه.

وأول من أشار إلى هذا المعهود هو أبو حيان الأندلسي رحمه الله في البحر المحيط ^(١)، وتبعه كل من تلميذه السمين الحلبي ^(٢) ، وابن عادل ^(٣)، وصاحب حقائق الروح والريحان ^(٤) ، كلهم في تفسير نفس الآية ولم يزدوا على ما قال صاحب البحر شيئاً.

وعند النظر في الآيات التي عقت بترجي التقوى وجدت منها :

- ما يتعلق بالأمر بعبادة الله تعالى .
- وما يتعلق بالأمر بأداء التكاليف الشرعية كالصيام، وإقامة الحدود .
- وما يتعلق بالأمر باتباع صراط الله، وترك ما عده من السبل .
- وما يتعلق كذلك بالقرآن الكريم وما صرف الله فيه من الوعيد، وضرب فيه من الأمثال .

وكل ذلك قد جاء الخطاب فيه إما عاماً أو خاصاً، أو صُدّر بنداء عام أو خاص كذلك ، ووجدت من الآيات المعقبة بترجي التقوى جانباً آخر يتعلق ببني إسرائيل، حين نكبوا عن الصراط، ورفضوا أوامر الله، واحتالوا في شرعه، وأعتوا موسى الكليم عليه السلام .

(١) البحر المحيط ٢/٢٠٤ .

(٢) الدر المصون ٢/٢٨٩ .

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٣/٢٩١ .

(٤) حقائق الروح والريحان ٣/١٥٩ .

حذف مفعول التقوى:

وقبل استعراض الآيات فإن الملاحظ فيها جميعا حذف مفعول التقوى، وقد اختلف فيه : - فمن قائل إن المفعول المحذوف هو ما ورد الحديث عنه في سياق الآية ثم عقب بترجي التقوى ، فالمأمور باتقائه أمر خاص ،

- ومن قائل إن الحذف بقصد التعميم ، فيشمل كل ما من شأنه أن يُتقى .

والقائلون بالوجه الأول ابن عباس ، وسعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، وابن زيد، والسدي ، واختاره الطبري . وممن قال بالوجه الثاني في بعض مواضعه : ابن عباس رضي الله عنه^(١) و ربيعة .

نوع الخطاب في الآيات :

وما صُدِّرَ ببناء أو خطاب من هذه الآيات فهو إما :

- لعموم الناس كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة (٢١)

- أو للمشركين - بمعونة السياق - ويدخل معهم كل من يعقل الخطاب ، كما

في قوله تعالى :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام (١٥٣)

فقد جاءت الآية في سياق خطاب المشركين ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الأنعام (١٥١).

والخطاب الخاص إما :

- للرسول ﷺ كما في قوله تعالى :

(١) حكاه عنه الواحدي في تفسير قوله تعالى "وأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِي وَلَا شَفِيعَ لَهُمْ يَتَّقُونَ" الأنعام ٥١. ينظر البسيط ١٥٧/٨ .

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأنعام (٥١).

أي: وأنذر بما يوحى إليك المؤمنين المفرطين في العمل، أو المجوزين للحرش مؤمنين كانوا أو كافرين مقرين به أو مترددين فيه، فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته لكي يتقوا (١).

- أو الخطاب للمؤمنين بما افترضه الله تعالى عليهم ، كقوله عز قائلًا :

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة (١٧٩) .

فقد جاءت الآية في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ...﴾ البقرة (١٧٨).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة (١٨٣).

وقوله سبحانه في سياق أحكام الصيام :

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة (١٨٧) .

فترجى التقوى جاء عقب إباحة ما كان محظورا من قبل؛ وهو ما يكون بين الرجل وامرأته ، فإذا نام الرجل في أي وقت من ليل رمضان فقد حرم عليه ما كان قد أبيع بغروب شمس ذلك اليوم ، ثم عاد المولى سبحانه عليهم بالتخفيف ؛ فأباح لهم ذلك حتى طلوع الفجر، ونهوا كذلك حال اعتكافهم عن مباشرة الزوجات -على خلاف بين الفقهاء في المراد بالمباشرة هل معناها الحقيقي أم المعنى المجازي أي الجماع - ثم أشارت الآية إلى هذا وما سبقه بأنها حدود الله ونهت عن قربانها،

(١) أنوار التنزيل ١٦٣/٢.

(٢) في تفسير الآية قولان أحدهما: قول الحسن والأصم أن المراد لعلكم تتقون نفس القتل بخوف القصاص والثاني: أن المراد هو التقوى من كل الوجوه وليس في الآية تخصيص للتقوى، فحمله على الكل أولى: ومعلوم أن الله تعالى إنما كتب على العباد الأمور الشاقة من القصاص وغيره لأجل أن يتقوا النار باجتناب المعاصي ويكفوا عنها، فإذا كان هذا هو المقصود الأصلي وجب حمل الكلام عليه . مفاتيح الغيب ٢٣٠/٥ .

وكل ذلك مما يُحتاج فيه إلى مجاهدة ومشقة ، فناسب تعقيبه بترجي التقوى ، على عادة القرآن في هذا وأمثاله .

أو أن تكون الآية ليست خطابا ؛ ولكنها إخبار عن أمر من الأمور ؛ كالإخبار عن القرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طه (١١٣)

أي كما رغب الله تعالى أهل الإيمان في صالحات الأعمال، بما وعدهم عليها من الثواب والأجر الجزيل، كذلك حذر بالوعيد أهل الكفر المقيمين على الكفر بآيات الله ، وعلى المعاصي ، فأنزل هذا القرآن عربيا، وخوّفهم فيه بضروب من الوعيد كي يتقوه، أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بما فعله الله بالأمم التي كذبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم مقيمون عليه من الكفر بالله^(١).

ملاحظة:

في الآية السابقة أُسندَ ترجي التقوى إلى المكني عنهم بضمير الغيبة دون إسناد ترجي إحداث الذكر لأن التقوى - وفق ما أفاد أبو حيان - عبارة عن انتفاء فعل القبيح، وذلك استمرار على العدم الأصلي؛ فلم يُسندَ إلى القرآن، وأسندَ إحداث الذكر إلى القرآن لأنه أمر حدث بعد أن لم يكن^(٢) .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الزمر (٢٧ ، ٢٨) .

المعنى: أن الله تعالى قد مثل لهؤلاء المشركين من كل مثل من أمثال القرون للآمم الخالية، تخويفا منه لهم وتحذيرا ليتذكروا فينزعجوا عما هم عليه من الكفر بالله. وقد ضرب الله تعالى للناس في هذا القرآن من كل مثل قرآنا عربيا غير ذي

(١) الطبري ٣٨١/١٨ بتصرف .

(٢) البحر المحيط ٣٨٦/٧ .

لبس. وكونه قرآنا عربيا- وهم عرب- ليفهموا ما فيه من المواعظ، حتى يتقوا ما حذرهم الله فيه من بأسه وسطوته، فينبوا إلى عبادته وإفراد الألوهة له، ويتبرّءوا من الأنداد والآلهة^(١).

أو الإخبار عن بعض أحوال المسلمين مع المشركين كقوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأنعام (٦٩).

أي : وما يلزم المتقين من قبائح أعمال وأقوال الذين يجالسونهم من غير المؤمنين ؛ ما يلزمهم شيء مما يحاسبون عليه. ولكن عليهم أن يُذكّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها^(٢).

خطاب بني إسرائيل:

أما بنو إسرائيل فبعدما كان منهم ما كان مع نبي الله موسى عليه السلام، ومع أوامر الله ونواهيه؛ صار المناسب لهم لكي يعودوا إلى جادة الطريق أن يخوفوا بالآيات العظام عليهم يتقون، فرفع الله الجبل فوق رؤوسهم، وأمرُوا أن يأخذوا ما في التوراة بجد ويؤدوا ما أمرهم الله وافترضه عليهم . كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة (٦٣).

وقوله : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف (١٧١).

فلقد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق باتباع موسى عليه السلام والعمل بالتوراة. وذلك أن موسى لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل عليه السلام بقلع الطور، ورفعهُ فوق رؤوسهم ، حتى كان كالظلة ، فقبلوا وأعطوا الميثاق على الطاعة،

(١) جامع البيان ٢٨٣/١٢ بتصرف .

(٢) أنوار التنزيل ١٦٧/٢ بتصرف .

فقل لهم : خذوا مَا آتَيْنَاكُمْ من الكتاب بجد وعزيمة. وادرسوا ما فيه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب، أو اعملوا به. لكي تتقوا المعاصي، أو رجاء منكم أن تكونوا متقين^(١).

وكذلك ما كان من أمر أصحاب السبت وكيف آل أمرهم إلى ثلاث فرق ؛ ناجية ، ومعذبة ، ومسكوت عنها، نُقِلَ عن ابن عباس والحسن نجاتها ، وعن ابن عباس في قول آخر هلاكها.

فحكى الله تعالى قول الفرقة الذين سكتوا عن إنكار فعل أصحاب السبت للفرقة التي نجت بعد ذلك بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لَمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف (١٦٤)، أي : إذ قالت جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، حتى أيسوا من قبولهم، لجماعة أخرى كانوا لا يقلعون عن وعظهم لَمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أي مخترمهم ومطهر الأرض منهم أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لتماديمهم في الشر ؟ فأجابوهم : إننا نستمر في وعظهم حتى مع إصرارهم لكي نقوم بعذر أنفسنا إلى الله تعالى، ولعلمهم أن ينتفعوا بهذا الوعظ فينقوا الله ويتركوا هذا الذنب^(٢).

أما الآيات التي عقت بترجي الشكر فبالاستقراء وجدت أنها وردت :

- في معرض الامتنان بالعفو ، والبعث بعد الموت وكلا الأمرين لبني إسرائيل^(٣).

(١) أنوار التنزيل ٨٥/١ بتصرف .

(٢) ينظر الكشف ١٧١/٢ بتصرف .

(٣) كقوله تعالى : (وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) البقرة (٥١ ، ٥٢) ، وقوله : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جِهَةً فَآخِذْنَاهُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) البقرة (٥٥ ، ٥٦).

- في معرض الامتحان بالنصر بعد الضعف والذلة ، والخطاب فيها لجماعة المؤمنين زمن النبي ﷺ (١).

- في معرض الامتحان بالتخفيف ورفع المشقة في الأحكام الشرعية (٢).

- في معرض الامتحان بنعمة تسخير الكون لبني آدم بذكر الآيات الدالة على طلاقة قدرة المولى سبحانه ، وهذه الآيات كونية وإنسانية . والكونية منها السماوية والأرضية (٣).

- في معرض الدعاء (٤).

وهنا ملاحظة وهي أن ترجي الشكر قد أسند - في آيات كثيرة - إلى المخاطبين ، والمطلوب منهم في الواقع إنما هو الإتيان بالشكر لا ترجييه ، وأجاب ابن عرفة رحمه الله بأن المطلوب منهم ترجي الشكر النافع، أي الذي يتحصل لهم به الثواب ، لأنهم عند إيقاع الشكر ليسوا على يقين من قبول شكرهم الذي يثابون عليه ، لذا خوطبوا بترجي الشكر (٥).

(١) كقوله تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِيَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) آل عمران (١٢٣)، وقوله:

(وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الأنفال (٢٦).

(٢) كقوله تعالى: (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) المائدة (٦)، وقوله: (فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) المائدة (٨٩).

(٣) كقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيقًا تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل (١٤)، وقوله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لِمَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل (٧٨)، وقوله: (وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الحج (٣٦)، وقوله: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) القصص (٧٣)، وقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلْكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الروم (٤٦)، وقوله: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فاطر (١٢) وقوله: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْزِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الجاثية (١٢) (٤) كقوله تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) إبراهيم (٣٧).

(٥) بمعناه من تفسير ابن عرفة ٤٠/٣.

المطلب السابع

معهود القرآن فيما يتعلق باقتران التسخير بلفظ الجلالة أو ضميره دون غيره من الأسماء الحسنى

ورد الفعل (سَخَّرَ) بمتصرفاته في القرآن الكريم - بمعنى التذليل والقهر - من نحو : سَخَّرْنَا ، سَخَّرْنَاهَا ، سَخَّرَهَا ، مَسَخَّرَات ، كلها مسندة إلى لفظ الجلالة ، ظاهرا أو ضميرا ، أو إلى ما لم يسم فاعله ، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى^(١). نحو قوله تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ الرعد (آية ٢).

وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل (آية ١٢).

وفي موضع آخر قوله ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الحج (آية ٣٧).

وقوله ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ فاطر (آية ١٣).

وأخيرا قوله تعالى ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْبَاشِرَاقُ﴾ سورة ص (آية ١٨).

(١) سَخَّرَهُ تَسْخِيرًا: كَلَفَهُ مَا لَا يُرِيدُ وَقَهَرَهُ. وَكُلُّ مَقْهُورٍ مُدَبَّرٌ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ مَا يُخَلِّصُهُ مِنَ الْقَهْرِ فَذَلِكَ مُسَخَّرٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} (إِبْرَاهِيمَ: ٣٣) أَي دَلَّلَهُمْ. وَسَخَّرَهُ تَسْخِيرًا: دَلَّلَهُ وَكَلَفَهُ عَمَلًا بِلَا أَجْرَةٍ وَلَا ثَمَنٍ، خَادِمًا أَوْ دَابَّةً تَاجِ الْعُرُوسِ (سَخَر).

وثُمَّ ملاحظتان :

الأولى : أن آيات التسخير وردت في السور المكية دون المدنية ، وسورة الرعد والحج وإن اختلف في زمان نزولهما ، فيمكن أن يجمع بين الأقوال التي اختلفت في سورة الرعد : بأنها مكية إلا آيات كما قال الإمام السيوطي في الإتيان ، أما سورة الحج فهي مختلطة ، فيها مدني ومكي وهو قول الجمهور . ويؤيد القول بالاختلاط ما أورده السيوطي في لباب النقول أن آيات كثيرة منها نزلت بالمدينة^(١) .

والذي يظهر للباحث والله أعلم أن موضوعات السورتين وسماتهما أشبه بالمكي منها بالمدني ، وأن أغلب آيات السورتين من قبيل القرآن المكي، فالحكم للأغلب، والله أعلم .

الملاحظة الثانية : ثمَّ سؤال أساس فيما نحن بصدده ، هو :

ما السر في إسناد التسخير إلى لفظ الجلالة وهو عنوان الألوهية دون إسناده إلى صفة الربوبية أو صفة الرحمن أو الرحيم مثلاً ؟

وللجواب عن هذا السؤال ، وعما عساه ينشأ من سؤال ناتج عن الملاحظة الأولى مفاده : لماذا خصت السور المكية بورود آيات التسخير فيها صراحة دون السور المدنية ؟ أقول وبالله التوفيق ومنه العون والتسديد :

- لما نازع المشركون في انفراد الله تعالى بالإلهية ، وادعوا الشركاء له ، وكذبوا النبي ﷺ ، وأنكروا البعث ولجؤا في عتوهم ونفورهم ؛ ساق القرآن البراهين القاطعة والحجج الناصعة على تفرد المولى سبحانه بالآلهية ، واتصافه بطلاقة القدرة، ومن هذه الدلائل: التسخير، وبالنظر في الآيات التي تناولت موضوع التسخير نجد تعقيب بعضها بإثبات تفرد الله تعالى بالخلق والأمر فهو رب العالمين.

(١) الإتيان في علوم القرآن، النوع الأول ٤٨/١ ، لباب النقول (١١٦ ، ١١٧) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأعراف (آية ٥٤).

ومن كان كذلك فهو الفاعل المختار المنفرد بالإلهية المستحق للعبودية دون سواه .

وعُقِبَ بعضها بإثبات غاية العجز لكل الآلهة المزعومة دون الله تعالى ، وأنهم لا يملكون أنفه الأشياء وهو القطمير - القشرة التي تغلف نواة التمرة - فكيف يُزَعَمون آلهة لها كامل التصرف والإرادة ؟

قال تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ فاطر (آية ١٣).

وإذا كان التسخير يشمل بعض المخلوقات التي تصل قوتها وعتوها إلى حد استئصال أمم من على وجه البسيطة؛ كفعل الريح العاتية بعاد قوم هود عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة (٦، ٧).

فإذا كانت هذه حال المسخر فكيف بالمسخر ؟
فلأجل ما سبق ناسب اقتران التسخير بالألوهية الدالة على القهر، والتذليل، والتصرف . وهو خطاب يناسب حال المنكر المعاند .

فإن قيل كيف اقترن التسخير بالألوهية في تسخير الطير في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

النحل (آية ٧٩) . واقترن بصفة الرحمة لدى الحديث عن الطير أيضاً في قوله

تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ سورة الملك (آية ١٩) .

أجيبُ بما كتبه بعض من صنف في تفسير سورة النحل حيث أفاد أن التعبير عن الطير في سورة الملك جاء بقوله ﴿ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ، وهو من فعل الطير ؛ فناسب أن تكون صفة الرحمة حاضرة ، وجاء التعبير في سورة النحل بقهر الطير وتسخيرها في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ وهو ليس من فعل الطير فناسب اقترانه بالألوهية^(١).

وأخيراً ؛ فاطراد ورود آيات التسخير في القرآن المكي واقتارانه بلفظ الجلالة الذي هو عنوان الألوهية يتناسب مع خطاب المعاندين ، الذين يكذبون الرسول ﷺ ، وينكرون البعث، ويزعمون آلهة هي في منتهى العجز في أمر نفسها فلا تملك لغيرها نفعا أو ضرا ، فضلا عن تسخير ذلك الغير .

(١) ينظر: تفسير سورة النحل ص ١٥٩ لسامي وديع القدومي، مع تصرف في العبارة .

المطلب الثامن

معهود القرآن فيما يتعلق بتعقيب الأحكام بذكر عللها

من المعهود القرآني تعقيب كثير من الآيات التي فيها أحكام بذكر العلة من الحكم ، ليكون دافعا لفعل المأمور ، وزاجرا عن ارتكاب المنهي ، وتبصيرا بالعاقبة، إن خيراً، وإن شراً .

والمقصود من الحكم بمعناه العام الذي هو إثبات أمر لأمر، أو نفيه عنه. فهو أعم من أن يراد به خصوص الحكم الشرعي فقط .

وفي المسألة موضع البحث يقول الإمام المراغي :

” دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التي يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب، ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس، لتعلم مغبة ما هي مقدمة عليه من الأعمال، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهي مثلبة الصدور، عالمة بأن لها فيها سعادة في دنياها وأخرائها، ولا تكون في عماية من أمرها فتتيه في أودية الضلالة، وتسير قُدماً لا إلى غاية“.(١)

والباحث يرى أن المقصود من الحكم هو معناه العام الذي هو إثبات أمر لأمر، أو نفيه عنه. فينضوي تحته الحكم الشرعي وغيره .

وليس المقصود بعلّة الحكم تلك المعروفة في اصطلاح الأصوليين بأنها : الصفة الجالبة للحكم.

أو الوصف الباعث على الحكم .(٢)

أو الوصف الذي علق عليه الحكم الشرعي ويسمى الباعث على الحكم.(٣)

وهي ما تكون شرطاً في صحة القياس ليجمع بها بين الأصل والفرع.(٤)

(١) تفسير المراغي ١٣/٥ .

(٢) الإحكام ٢٨٩/٣ .

(٣) إجابة السائل شرح بغية الأمل ١٨٣/١ .

(٤) قواطع الأدلة في الأصول ١٤٠/٢ .

لكن المقصود هنا هو العلة المساوية للحكمة في المعنى أو ما يمكن أن يُسأل عنها بـ ما الحكمة أو ما الغرض من تشريع هذا الحكم ؟ أو ما الفائدة العائدة على المكلف من الأمر أو النهي؟ أو ما سبب كذا ؟

وبالنظر في الآيات نجد من الأحكام ما هو معلل بالتقوى كقوله تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة (١٧٩).

أي تتقون القصاص، فتتقون عن القتل^(١).

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة (آية ١٨٣) .

أي تتقون المعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة الداعية إليها كما قال عليه الصلاة والسلام " فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ " ^(٢) ، أو تتقون الإخلال بأدائه لأصالته ، أو تصلون بذلك إلى رتبة التقوى^(٣).

ومن الآيات ما هو معلل بذكر صفة من صفات الجلال بغرض :

- بيان قدرة الله المطلقة على جمع الخلق أينما كانوا كقوله تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة (آية ١٤٨) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع فهو تعليل للحكم^(٤).

- أو التحذير من العقاب جرّاء مخالفة الرسول ﷺ .

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الحشر (آية ٧) .

(١) الطبري ٣٨٤/٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة ٢٦/٣ .

(٣) أبو السعود ١٩٨/١ .

(٤) المرجع السابق ١٧٧/١ .

أي اجعلوا طاعة الرسول وقاية لكم من عذاب الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة، وعلل ذلك - معظماً له بإعادة لفظ الجلالة مؤكداً ؛ لأن فعل المخالف فعل المنكر - بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي له وحده الجلال والإكرام على الإطلاق ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي العذاب الواقع بعد الذنب.^(١)

ومنها ما هو معلل ببعض من صفات الجمال للمولى سبحانه كالمغفرة، والرحمة ، والرأفة ، وذلك بعد رفع الإثم عن المضطر الذي يَطْعَمُ محرماً حين يُشْفِي على الهلاك فينقذ نفسه بتناول المحرم دونبغي أو عدوان . فلأن الله غفور رحيم فهو لا يؤاخذ من هذا حاله ، فكانت هذه علة عقت بها الآية حتى لا يقطع اليأس بفاعل ذلك اضطراراً . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة (آية ١٧٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تحقيقٌ وتقريرٌ للحكم وتعليلٌ له فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يُضِيعَ أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم.^(٢)

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
النور (آية ٥٦).

ومنها ما علته ترجي الشكر كما في قوله تعالى :
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

(١) نظم الدرر (٤٣٤/١٩) بتصرف .

(٢) أبو السعود ١٧٣/١ .

يُرِيدُ بِكُمْ الْغُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿البقرة (١٨٥)﴾.

أي ولتكونوا في حالة يرجى معها لزوم الطاعة واجتناب المعصية ، لأن الشكر صرف ما أنعمه المنعم في طاعته . والعمل إذا خف كان أقرب إلى لزوم الطاعة بلزومه ، ولو ثقل لأوشك أن يعصي بتركه ، فهذا قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) . ومنها المعلل بإرادة البيان والهداية لسنن المهيدين السابقين ، ومن العلل كذلك محبة الله التوبة على عباده ، ومنها التخفيف عن عباده في الأحكام الشرعية. وكل ذلك قد اجتمع في قوله تعالى :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ الَّذِينَ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ النساء (آية ٢٨)

ومنها التعليل بذكر عظم الذنب ، وذلك بعد النهي عن محرم ؛ كما في قوله تعالى :

﴿وَاتُوا الْبَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ النساء (آية ٢).

ومنها التعليل بتقليد الآباء ، كقوله تعالى -حديثاً عن العذاب العظيم والأحوال التي تنتظر الكافرين المكذبين - : ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِلْأَلْبِ الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ الصافات. (٦٢ - ٧٠).

فقد علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم على الضلال، وترك اتباع الدليل.(١)

قال الإمام الرازي بعد ذكر عبارة الزمخشري السابقة : " ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى " (٢)

وبعض التعليقات ذكرت إجمالاً، وهو الغالب ، وبعضها ذكرت مفصلة ، والسبب في التفصيل عظم ضرر وخطورة ما في حيز النهي ، كآية تحريم الخمر وما معها من محرمات أخرى في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ المائدة (٩٠ ، ٩١) .

يقول الدكتور الزحيلي : "غالب تعليل الأحكام الشرعية في القرآن جاءت بإيجاز، أما هنا فإنه فصل في بيان الحكمة أو العلة، فذكر ثلاث حكم، ودل على تحريم الخمر والميسر بأكثر من دلالة ليشير إلى ضررهما وخطرهما".(٣)

وقد يأتي التعليل لبيان استحقاق العقوبة ؛ كقوله تعالى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف (آية ١٤٦) .

فقد أخبر عن هؤلاء المتكبرين أنهم يتركون طريق الرشاد ويتبعون سبيل الغي والضلal، أي الكفر يتخذونه ديناً. ثم علل فقال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي ذلك الفعل الذي فعلته بهم بسبب تكذيبهم.(٤)

(١) الكشف ٤/٤٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/٣٣٨ .

(٣) التفسير المنير للزحيلي ٧/٤١ .

(٤) القرطبي ٧/٢٨٣ .

ويأتي التعليل في الأوامر ، والنواهي ، وغيرهما ^(١) .

من فوائد التعليل

للتعليل في نهايات الآيات فوائد منها :

- استنباط القواعد الفقهية، مثل ما استنبطه الإمام الرازي رحمه الله من قوله

تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلَّى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾
الجاثية (٣١) فقد علل استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها، وهذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع ^(٢).

- بيان الحكمة من تشريع الأحكام .

- بيان سبب التحريم أو التحليل ، أو بيان الغرض من الأمر أو النهي .

- بيان سبب استحقاق المثوبة أو العقوبة.

- بيان سبب عدم المؤاخذه على بعض الذنوب .

(١) فأما الأوامر فكقوله تعالى :
(وَأَتُوا النَّيَّامَى أُمُورَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أُمُورَهُمْ إِلَى أُمُورِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) النساء
آية (٢)
وقوله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الأعراف (٢٠٤)، وقوله : (فَلِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَبِحَقِّظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) النور (٣٠)، وقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات
آية (٦) .
وأما النواهي:

فكقوله تعالى : (وَلَا تَبَاسِرُواهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) البقرة (١٨٧). وقوله : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) الأنعام (١٤١) وقوله : (وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا خُسْرٌ) التوبة (٨٤) وقوله : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) البقرة (٢٢٢).
والأخبار فكقوله تعالى : (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) المائدة (٦). وقوله : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الممتحنة (٨). وقوله : (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) النساء (١٧٦) ، وقوله : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجِسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الأنعام (١٤٥) (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) النور (١٠).
(٢) مفاتيح الغيب ٦٨١/٢٧.

المطلب التاسع

معهود القرآن في تقديم الشمس على القمر إذا اجتمعا

ومما يكاد يطرّد في الكتاب الكريم أنه حيثما اجتمع الشمس والقمر في الكلام قدمت الشمس على القمر في الذكر ، إلّا في موضعين يأتي ذكرهما وبيان سببهما .
وذلك المعهود في مواطن عدة في القرآن الكريم ، في سور :
الأعراف ويونس ويوسف و ، والرعد ، وإبراهيم ، والنحل ، والأنبياء ، والحج ، والفرقان ، والعنكبوت ، ولقمان ، وفاطر ، ويس ، والزمر ، وفصلت ، والرحمن ، والقيامة ، والشمس^(١).

(١) وهذه المواضع كالتالي : (إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) الأعراف (٥٤)
(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) يونس (٥)
(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) يوسف (٤) .
(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) الرعد (٢)،
(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَافِعِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) إبراهيم (٣٣)،
(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) النحل (١٢)
(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ فِي فَلَكَ يُسَبِّحُونَ) الأنبياء (٣٣)
(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) الحج (١٨).
(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) العنكبوت (٦١).
(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) الفرقان (٦١)
(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) لقمان (٢٩)
(يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) فاطر (١٣)
(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرَاتِهِ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَهَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَئِنْ لَّمْ يَكُنِ اللَّيْلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكَ يُسَبِّحُونَ) يس (٤٠)
(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) الزمر (٥)
(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) فصلت (٣٧)
(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) الرحمن (٥)
(وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ) القيامة (٩)
(وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها) الشمس (١، ٢).

وسبب هذا التقديم أن الشمس لما كانت أكبر وأعظم ؛كان أمرها أعجب ،
والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون
عجيباً^(١).

وأقول : إن الشمس أعظم من القمر جرماً ، وأكثر منه نفعا ، وتتعلق بها
مصالح الخلق في معاشهم أكثر من القمر ، ومنها يستمد القمر نوره ، فلولاها لما
عرف عوام الناس عنه خبراً ؛ ولا أحاط العلماء به خبراً ، فلا جرم كانت أولى منه
بالتقديم .

وتخلفت هذه العادة في موضعين :

الأول : في سورة الأنعام في الآيتين (٧٧ و ٧٨) في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَى
الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى
الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وسبب ذلك والعلم عند الله تعالى :

أنه للترقي في الحجاج ، وإلزام الخصم^(٢)، حيث تم سوق الأدلة وإبطالها
واحداً بعد الآخر. بدءاً بالأدنى؛ الذي هو (كوكب) ، وانتهاءً بالأعلى ؛ التي هي
الشمس، فتم الإلزام ، وكان الإفحام .

الثاني : في سورة نوح ، أيضاً قُدم القمر على الشمس في الذكر في حكاية
قول نوح لقومه:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ
سِرَاجًا ﴾

وأقول : إن تقديم القمر على الشمس في هذا الموضع -والله أعلم - جاء
رعاية للفاصلة، واعتباراً للجرس^(٣)، فإن الحرف الأخير في الآيات - من الخامسة

(١) مفاتيح الغيب (١٣٠/٢٥) .

(٢) الإلزام هو : أن يُعْجَزَ السائل المعلل ، والإفحام بالعكس . الكليات ١/١٥٥ ، فصل الألف والقاف .

(٣) الجرسُ: الصوتُ نفسه، وجرسُ الحَرْفِ: نغمتهُ . تهذيب اللغة أبواب الجيم والسين ١٠/٣٠٥ . والجرسُ
أيضاً الصوت الخفيّ. الصحاح (جرس).

إلى نهاية السورة (الآية الثامنة والعشرين) - كلها قد جاء قبله حرف المد (الألف) وختمت الكلمة بألف الإطلاق ، فروعيت الفاصلة ، ولا يتأتى ذلك إذا قدمت الشمس على القمر في الذكر، حيث يتقدم الحرف الأخير حرف المد (الواو) ، في كلمة (نورا) التي هي وصف للقمر، وهو ما يُخلُّ بجَرَسِ الآيات، وهذا أمر لا يليق بجمال النظم القرآني.

المطلب العاشر

معهود القرآن في تقديم قصة عاد على ثمود حيثما اجتمعتا في الذكر

من معهود القرآن في القصص ، تقديم قصة عاد على ثمود في الذكر ؛ لأنه هو الأصل ؛ إذ الترتيب الوجودي يقتضي ذلك ، فعاد أسبق وجوداً من ثمود ، فروعياً ذلك في جميع المواضع^(١) إلا في موضعين اثنين :

الأول: في سورة (ق) وهو قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ سورة ق (١٢ ، ١٣) . فقدمت ثمود على عاد في الذكر ، والسر في ذلك - والله أعلم - وأستغفره من الخطأ والزلل - أن تخلف المعهود في هذا الموضع إنما هو لمراعاة رؤوس الآي ؛ وذلك أن رؤوس الآيات في سورة (ق) سبق الحرف الأخير منها إما بالياء الممدودة أو بالواو الممدودة ، ولم تأت الألف الممدودة في رأس آية منها ، فلو روعي الترتيب الوجودي و كانت كلمة (عاد) رأس آية لاختل الجرس ، ونشزت الكلمة عن السمع ، وكلام الله منزّه عن مثل هذا ، فلذلك جاءت كلمة ثمود رأس آية .

والثاني : في سورة الحاقة في قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الآيات ٤-٧) فقد تخلف المعهود هنا ؛ وقدمت قصة ثمود على قصة عاد لأن قصة ثمود بنيت على غاية الاختصار ، وبُسط الكلام في قصة عاد ، والعادة تقديم ما هو أخصر^(٢).

(١) وقد استقصيت هذه المواضع حسب الطاقة- فوجدتها خمسة عشر موضعاً، أذكر فيما يلي اسم السورة ورقم الآية التي ورد فيها اسم سيدنا هود قبل اسم سيدنا صالح عليهما السلام أوقصة عاد قبل قصة ثمود : النوبة ٧٠، الأعراف ٦٥، هود ٥٠، و ٨٩، إبراهيم ٩، الحج ٤٢، الفرقان ٣٨، الشعراء ١٢٣، العنكبوت ٣٨، سورة ص ١٢، غافر ٣١، فصلت ١٣، الذاريات ٤١، القمر ١٨، الفجر ٦ .
(٢) التفسير المنير للزحيلي ٨٥/ ٢٩ ، بتصرف .

المطلب الحادي عشر

ذكر الدلائل في الآيات الكونية عقب ذكرها في الآيات الإنسانية^(١)

المعهود في القرآن الكريم أنه كلما ذَكَرَ براهين إلهية المولى سبحانه وتعالى ودلائل قدرته، وكمال حكمته في الآيات الإنسانية؛ أعقبها بذكر تلك الدلائل والبراهين في الآيات الآفاقية . فالأمر مداره على الآيات الإنسانية فحيثما ذكرت يعقبها غالبا ذكر الآيات الكونية .

كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ ﴾ النحل (٧٨ - ٨١)

هذه الآيات وردت في سياق تعداد نعم المولى سبحانه وتعالى على بني آدم في سورة النحل التي من أسمائها (سورة النعم)^(٢) . فالمولى سبحانه وتعالى يمتن عليهم بالآيات الأنفسية؛ التي منها إخراجهم إلى الوجود لا علم لديهم مع تزويدهم بالحواس والأدوات التي يزيلون بها ما ولدوا عليه من الجهل ، ويكتسبون بها المعارف، ويرتقون بها في مراقي العلوم ، ومدارج المعارف، وأظهر هذه الحواس السمع والبصر والعقل ، وذلك لكي يعرفوا ما أنعم الله عليهم طورا بعد طور، فيشكروه باستعمال كل عضو فيما خلق من أجله. ثم تحدث السياق عن بعض من دلائل قدرته تعالى في الآيات الكونية وهي خلق الطير مهياً للطيران بما خلق لهن من الأجنحة والأسباب المساعدة لهن، كرقعة قوام الهواء، وإلهامها بسط الجناح وقبضه،

(١) الآيات الكونية أو الآفاقية هي دلائل قدرته وبراهين إلهيته سبحانه في الكون المنظور ، والآيات الإنسانية أو الأنفسية هي ما تكون من تلك الدلائل في خلق الإنسان وهو ما أشير إليه في القرآن بقوله تعالى : (سُرِّيهِمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت ٥٣).

(٢) قاله قتادة ، وعلي بن زيد . وسبب التسمية ما عدد الله فيها من نعمه على عباده . ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٩٥/٧) ، بحر العلوم (٢٨٥/٢) ، زاد المسير ٢ (٥٤٨/) .

وجعل أجسامها مناسبة للطيران، وهي مع ثقل أجسام بعضها لاتسقط ؛ لأن الله تعالى هو الذي يمسكها بقدرته . وفي هذا التسخير والإمساك دلائل على إلهية المولى سبحانه وقدرته، وليس للأصنام حظ من ذلك، وهذه الآيات وأمثالها خطاب لكل العقلاء، لكن خص بها المؤمنون لانتفاعهم بها دون غيرهم^(١).

وقوله في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُكِّ تَحْمِلُونَ ﴾ المؤمنون (١٢-٢٢)

وقوله في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم (٢٠-٢٤) . وفي سورة فاطر من قوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ فاطر (١١-١٣) .

وفي سورة الواقعة من قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ الآية (٥٨) ، إلى قوله: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ الآية (٧٥). وقوله تعالى في سورة عبس في الآيات (١٧-٣٥):

﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ . إلى قوله: ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ ﴾

قلت : وهذه العادة ليست مطردة بل هي أغلبية ؛ لأن هناك بعض المواضع التي لم يأت فيها ذكر للآيات الأفاقية عقب الآيات الأنفسية. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤْفِكُونَ . فَالِقُ الْبَاصِحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . فهذه الآيات لم تسبق بآيات في الأنفس كما هو

(١) تفسير المراغي ١١٩/١٤ .

المعهود ، لكنها جاءت عقيب آيات أثبتت أمر التوحيد، ثم أردفته بتقرير أمر النبوة والبعث وذكر مسائل لها اتصال بهذه الأمور، ثم جاءت هذه الآيات وفصلت طائفة من آيات التكوين تدل أوضح الدلالة على وحدانيته تعالى وقدرته، وعلمه وحكمته، وبيان سننه في خلقه وحكمه^(١).

والملاحظ في نفس السياق اطراد المعهود الذي نتكلم في شأنه ، ففي أثناء هذه الآيات يأتي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ الأنعام (٩٨) الذي يخبرنا عن قدرة المولى سبحانه في خلق بني آدم، فهو الذي ابتداء خلقهم من غير شيء، فأوجدتهم بعد أن لم يكونوا شيئاً من نفس واحدة، هي آدم عليه السلام وجعل لهم مستقراً في الرحم ومستودعاً في القبر، أو مستقراً في أصلاب الآباء ومستودعاً في أرحام الأمهات .، أو مستقراً في الدنيا ومستودعاً في الآخرة^(٢).

ثم تأتي بعد هذه الآية الإنسانية آية في الآفاق وهي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام (٩٩) . فقد وافقت المعهود بتلو آية آفاقية لآية أنفسية والله أعلم

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴾ ثم قال بعد آيات :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ فالآيات أقسمت أولاً ببعض من الآيات الآفاقية كالشمس والقمر

(١) تفسير المراغي ١٩٦/٧ . بتصرف.

(٢) الطبري ٥٦٢/١١ .

والنهار والليل والسماء والأرض ، وما فيها من دلائل القدرة ، ثم أعقبت ذلك بالقسم بالنفس الإنسانية واستعدادها للخير والشر، وما في ذلك من بديع صنع الله تعالى .
وأما قول الإمام الرازي رحمه الله : "واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس ، فإنه يذكر عقيبتها الدلائل الموجودة في الآفاق"^(١) فالأمر فيه على ما ذكرته من أنه أغلبي لا كلي.

هل لمعهود القرآن أثر في ترجيح معنى على آخر أو ردّ معنى لعدم اتفاقه مع المعهود؟

أقول وبالله التوفيق : لمعهود القرآن مدخل في ترجيح معنى على آخر أو رده لعدم موافقته لما عهد من القرآن الكريم .
وأظهر مثال على ذلك ما جاء عن في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ ، فمن المعلوم أنه من تكريم الله تعالى نبيه الكريم ﷺ عدم ندائه في القرآن الكريم باسمه المجرد كغيره من الأنبياء بل ناداه المولى سبحانه بلقب النبوة أو الرسالة، فقد ورد ندأؤه بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ في القرآن ثلاث عشرة مرة . وورد لفظ النبي - معنياً به رسول الله محمداً ﷺ - بدون حرف النداء تسع عشرة مرة . وورد ندأؤه بـ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ مرتين ، وورد لفظ الرسول مراداً به النبي الكريم ﷺ إحدى وأربعين مرة .

وأيضاً نودي ﷺ بالوصف ؛ وهذا الوصف اشتقّ من الحالة التي كان عليها فقد نودي بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في هذا الخطاب على أقوال:

١- قال عكرمة يا أيها المزمّل بالنبوة والمدثّر بالرسالة ، وعنه أيضاً: يا أيها الذي زمّل هذا الأمر أي حمله ثم فتر.

٢- قال ابن عباس: يا أيها المزمّل بالقرآن.

(١) مفاتيح الغيب ٥٩/٣١ .

٣- قال قتادة: يا أيها المزمّل بثيابه، وكان هذا في ابتداء ما أوحى إليه فإنه ﷺ لما جاءه الوحي في غار حراء رجع إلى خديجة زوجه يرجف فؤاده فقال: زملوني زملوني لقد خشيت على نفسي أن يكون هذا مبادئ شعر أو كهانة وكل ذلك من الشيطان وأن يكون الذي ظهر بالوحي ليس الملك فقالت له خديجة رضي الله عنها - وكانت وزيرة صدق - " كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " (١).

لكن الزمخشري رحمه الله كان له في تفسير الآية رأي آخر، فراه يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما بالليل مزمّلا في قطيفة، فنُبّه ونودي بما يُهَجَّن (٢) إليه الحالة التي كان عليها من التزمّل في قطيفته واستعداده للاستقبال في النوم، كما يفعل من لا يهمله أمر ولا يعنيه شأن. واستشهد الزمخشري لكلامه بقول ذي الرمة:

وكائن تخطّت ناقتي من مفازة ... ومن نائم عن ليلها مزمّل (٣)

وبقول مالك بن زيد مناة:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا يا سعد تورد الإبل (٤)

إذ المقصود من قول ذي الرمة "ومن نائم....الخ" ذم الكسلان المتقاعس، ومن قول مالك بن زيد مناة "أوردها ... الخ" عيب أخيه سعد بن زيد الذي قَصَرَ في إيراد الإبل ؛ فأوردها الماء وهو مشتمل بكسائه .

(١) جزء حديث أخرجه البخاري - كتاب بدء الوحي- باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، ٧/١ ، ح رقم ٣ ، عن عائشة، وأخرجه مسلم - كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٣٩/١ .

(٢) الهَجْنَةُ: العَيْبُ. تقول: لا تفعل كذا فيكون عليك هَجْنَةٌ. المحيط في اللغة، وتاج العروس (هجن) وهَجَّن الأمر: قَبَّحه وعابه . معجم اللغة العربية المعاصرة (هجن)

(٣) ديوان ذي الرمة ١٤٨٧/٣ .

(٤) البيت لمالك بن زيد مناة ، الذي كان يضرب به المثل في كثرة الإبل فيقال عن غيره: "أبل من مالك" وقوله : ما هكذا الخ صار مثلاً يضرب لمن قَصَرَ في الأمر. مجمع الأمثال للميداني ٣٦٤/٢ .

وقد عدّ ابن المنير هذا الكلام من الزمخشري خطأ في الرأي، وسوء أدب مع مقام النبي ﷺ. (١)

والحق أن ما ذهب إليه الزمخشري رحمه الله - بكون الخطاب على جاء على سبيل تهجين حالة النبي ﷺ إليه؛ لكي يفارقها إلى حالة النشاط والقيام بأمر الرسالة - قد أصاب فيه أجرا واحدا ، وإنما الخطاب قد جاء على هذا النحو على سبيل الملاطفة والتأنيس .

وذلك لأن المعهود من القرآن الكريم مخاطبة النبي ﷺ بصيغة التشريف والتكريم ، عن طريق ندائه بلقب الرسالة، أو النبوة، أو الوصف المشتق من الحالة التي هو عليها تأنيسا وملاطفة له ﷺ ؛ ولا أدل على ذلك من عدم ندائه في القرآن الكريم باسمه المجرد كسائر الأنبياء الذين نودوا بأسمائهم مجردة دون ألقاب أو أوصاف (٢) .

ومن الأمثلة على أن لمعهود القرآن مدخلا في رد قول أو تفسير للآية ما استدل به أهل السنة على أن الكبائر - سوى الشرك - يمكن أن يغفرها الله تعالى لعباده المؤمنين واستدلوا بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر ٥٣] وذلك لأن المعهود من القرآن تخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وإذا ورد لفظ العبد هنا في معرض التعظيم

(١) حاشية ابن المنير السكندري مطبوعة بهامش الكشاف ٦٣٤/٤.

(٢) وفي هذا الصدد عبارة للسهيلي صاحب الروض الأنف، يقول رحمه الله: " في تسميته إياه ﷺ بالمدثر في هذا المقام ملاطفة وتأنيس، ومن عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو فيها، كقوله عليه السلام لحذيفة: قم يا نومان، وقوله لعلي بن أبي طالب- وقد ترب جنبه: " قم أبا تراب " فلو نادى المولى سبحانه رسوله ﷺ وهو في تلك الحال من الكرب باسمه، أو بالأمر المجرد من هذه الملاطفة لهاله ذلك، ولكن لما بدىء، بيا أيها المدثر أنس، وعلم أن ربه راض عنه " . الروض الأنف للسهيلي ١٤٦/٣ .

وجب أن لا يقع إلا على المؤمنين ، فظهر أن قوله: ﴿يَاعِبَادِي﴾ مختص بالمؤمنين ، ولأن المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبد الله وأما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات وعبد العزى (وعبد المسيح) وإذا ثبت ذلك فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ عام في جميع المسرفين، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ، وهذا يقتضي كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين وهو المَطْلُوبُ^(١). وهذا الغفران مقيد ، وليس بمطلق ، فالشرك لا يغفر ، وحقوق العباد لا بد أن ترد إليهم ، وأدلة هذا واضحة في القرآن الكريم والسنة المطهرة . وقد استخدم الفخر الرازي هذا المعهود في رد قول المعتزلة بعدم غفران الكبائر .

فظهر أن لمعهود القرآن مدخلا في ترجيح وقبول بعض الأقوال، و ردّ البعض الآخر .

ما ليس من معهود القرآن

كما أن للقرآن الكريم عادة ومعهودا في بعض الأمور ؛ فكَذَلِكَ هناك أمور ليست من معهوده ، منها :

- الإقسام بالوضيع أو الخسيس من الخلق؛ بل النفيس والشريف منه.
- ليس من عادة القرآن التعبير بالفصيح مع وجود الأفصح إلا لعلّة.
- الاهتمام بأسماء الأعلام والمواضع .
- الاهتمام بما لا حاجة إليه من تفاصيل القصص والمواضيع .

من فوائد الاهتمام بمعرفة معهود القرآن

- ترجيح معنى على آخر .
- ردّ بعض الأقوال الغير مناسبة .
- معرفة علل بعض الأحكام سواء أكانت شرعية أو غيرها .

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٤٦٣/٢٧ ، اللباب في علوم الكتاب ٥٢٨/١٦ ملخصا منهما .

- معرفة أن الله تعالى إذا أقسم بشيء من خلقه فإنه يقسم بالأشرف والأنفس من جنس المقسم به
- معرفة السر في ختام بعض الآيات بذكر صفة أو أكثر من صفات الجلال والكمال.
- معرفة السر في إثارة التعبير بصيغة دون أخرى .

الخاتمة

وفي الختام فقد كان هذا البحث إجابة عن الأسئلة التي طرحت في (مشكلة البحث)، فكانت نتائجه :

- أن للقرآن الكريم معهوداً في موضوعات كثيرة.
 - أن للقرآن الكريم معهوداً في أساليبه .
 - أن معهوده في أكثر المواضيع أغلبي وقد يكون في بعضها كلياً.
 - أن معهود القرآن يكون في المفردات ويكون في التراكيب.
 - أن لبعض عادات القرآن مدخلاً في ترجيح معنى على معنى.
 - أنه إذا تخلف المعهود القرآني في موضوع ما فإن ذلك يكون لغرض.
 - أن هناك فوائد جمّة للاهتمام بمعهود القرآن .
- هذا والعلم عند الله تعالى ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

فهرس المصادر والمراجع

- ١- الإتقان في علوم القرآن، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة: ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م.
- ٢- إجابة السائل شرح بغية الأمل ، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبي إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ) ، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي ، والدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل ، نشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.
- ٣- الإحكام في أصول الأحكام ، لأبي الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الأمدي (المتوفى: ٦٣١هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي ، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت- لبنان ودمشق .
- ٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، للعلامة أبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) ، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، دون تاريخ .
- ٥- الإصابة في تمييز الصحابة ، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، (المتوفى: ٨٥٢هـ) ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ .
- ٦- إصلاح المنطق ، لابن السكيت، أبي يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى: ٢٤٤هـ) ، تحقيق: محمد مرعب ، نشر: دار إحياء التراث العربي ، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م .

٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البیضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

٨- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل ، نشر: دار الفكر - بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

٩- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية ، دون تاريخ .

١٠- التحرير والتنوير « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، نشر: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

١١- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدوانی، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ) ، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي. جمهورية مصر العربية .

١٢- تفسير الإمام ابن عرفة ، للشيخ محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبي عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ) ، تحقيق: د. حسن المناعي ، نشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية - تونس ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م .

١٣- التفسيرُ البسيطُ، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتورة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه

وتتسبقة ، نشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ .

١٤- التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، لسامي وديع عبد
الفتاح شحادة القدومي ، نشر: دار الوضاح، الأردن - عمان . دون تاريخ .

١٥- التفسير الحديث للأستاذ محمد عزت دروزة ، نشر: دار إحياء الكتب
العربية - القاهرة ، تاريخ الطبع : ١٣٨٣ هـ .

١٦- تفسير الشعراوي - الخواطر . للشيخ محمد متولي الشعراوي (المتوفى:
١٤١٨هـ) ، نشر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م .

١٧- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد بن علي رضا بن
محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني
(المتوفى: ١٣٥٤هـ) ، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م .

١٨- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ، أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن
إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ، (المتوفى: ٣٢٧هـ) ، تحقيق: أسعد
محمد الطيب ، نشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية ،
الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ .

١٩- التفسير القرآني للقرآن ، للشيخ عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد
١٣٩٠هـ)، نشر: دار الفكر العربي - القاهرة، دون تاريخ .

٢٠- تفسير المراغي، للشيخ أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)
. نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة:
الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

٢١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، للدكتور وهبة بن مصطفى
الزحيلي ، نشر: دار الفكر المعاصر - دمشق ، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ .

- ٢٢- التفسير الواضح، للدكتور محمد محمود حجازي ، نشر: دار الجيل الجديد - بيروت ، الطبعة: العاشرة - ١٤١٣ هـ .
- ٢٣- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) ، تحقيق: محمد عوض مرعب ، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
- ٢٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
- ٢٥- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، نشر: دار الكتب المصرية - القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .
- ٢٦- جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ، نشر: دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.
- ٢٧- حاشية ابن المنير السكندري أحمد بن محمد بن منصور المتوفى سنة ٦٨٣ هـ- المسماة:الانتصاف من الكشف -مطبوعة بهامش تفسير الكشاف، نشر: دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ .
- ٢٨- حقائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي ، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي ، نشر: دار طوق النجاة، بيروت - لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

- ٢٩- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٣٠- الدر الفريد وبيت القصيد ، محمد بن أيذر المستعصي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ) ، تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م .
- ٣١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) ، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط ، نشر: دار القلم، دمشق . دون تاريخ .
- ٣٢- ديوان امرئ القيس ، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م) ، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي ، نشر: دار المعرفة - بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- ٣٣- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب د/ مفيد محمد محمد قميحة ، نشر دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان - الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٣٤- ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب ، لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي (المتوفى: ٢٣١ هـ) ، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح ، نشر: مؤسسة الإيمان جدة ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢ م - ١٤٠٢ هـ .
- ٣٥- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف - القاهرة ، مصر- الطبعة الثانية ، برقم ٥٢ ضمن سلسلة (ذخائر العرب) .
- ٣٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٣٧- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية ، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ) ، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ .

٣٨- زاد المسير في علم التفسير ، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، نشر: دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ .

٣٩- الزاهر في معاني كلمات الناس ، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ) ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن ، نشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

٤٠- زهرة التفاسير للشيخ محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) ، نشر: دار الفكر العربي . دون تاريخ .

٤١- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لعبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري المشهور بابن عقيل (المتوفى : ٧٦٩هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، نشر : دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه ، الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٤٢- شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ) ، تحقيق: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي ، نشر: دار المعرفة - بيروت، دون تاريخ .

٤٣- شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري» ، تأليف: محمد بن محمد حسن شرّاب ، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م .

٤٤- شرح كتاب سيبويه لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦ - ٣٨٤ هـ) . جزء من الكتاب (من باب الندبة إلى نهاية باب الأفعال) أطروحة دكتوراة

- لـ: سيف بن عبد الرحمن بن ناصر العريفي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، عام: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
- ٤٥- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ). تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٤٦- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلّام (بالتشديد) بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبي عبد الله (المتوفى: ٢٣٢هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، نشر: دار المدني - جدة، دون تاريخ .
- ٤٧- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، نشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ .
- ٤٨- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، نشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- ٤٩- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، نشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- ٥٠- قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)،

تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٩م .

٥١- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ، نشر: دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ .

٥٢- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (المتوفى: ١٠٦٧هـ) نشر: مكتبة المثنى - بغداد ، تاريخ النشر: ١٩٤١م.

٥٣- الباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

٥٤- لباب النقول في أسباب النزول ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي ، نشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

٥٥- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، نشر: دار صادر - بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ .

٥٦- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ) ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، نشر: دار المعرفة - بيروت، لبنان. دون تاريخ .

- ٥٧- مجمل اللغة لابن فارس ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان . نشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٥٨- محاسن التأويل ، للشيخ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود ، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ .
- ٥٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ .
- ٦٠- المحكم والمحيط الأعظم . أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ] ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ٦١- مختار الصحاح . زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد ، نشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا ، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- ٦٢- المعجم الوسيط ، إصدار: مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، المؤلفون: (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة - القاهرة ، دون تاريخ .
- ٦٣- معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ) ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار /

عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، نشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر ، الطبعة: الأولى.

٦٤- معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل ، نشر: عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

٦٥- مفاتيح الغيب ، للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٦٦- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني ، نشر : دار المعرفة - بيروت - لبنان ، دون تاريخ .

٦٧- المفصل في صنعة الإعراب ، لأبي القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ، تحقيق: د. علي بو ملحم ، نشر: مكتبة الهلال - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.

٦٨- مقامات الحريري، لأبي محمد القاسم بن علي الحريري (المتوفى: ٥١٦هـ) ، نشر: مطبعة المعارف، بيروت ، ١٩٧٣م .

٦٩- المقتضب ، لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ) ، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة. ، نشر: عالم الكتب. - بيروت ، دون تاريخ .

٧٠- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ) ، نشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة: الثالثة، دون تاريخ .

٧١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) ، نشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة . دون تاريخ .

٧٢- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

الرسائل العلمية

٧٣- عرف القرآن الكريم والمعهود من معانيه واستعمالاته وأثره في الترجيح الدلالي، للدكتور أحمد الخالدي ، بحث لنيل درجة (الدكتوراه) من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، بجامعة اليرموك - الأردن ٢٠٠٨ م .

